دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

الأمة العربية

ماهيتها ، رسالتها ، مشاكلها

بقلم
زكي الأرسوزي

NE

BOBST LIBRARY
3 1142 02824 6059

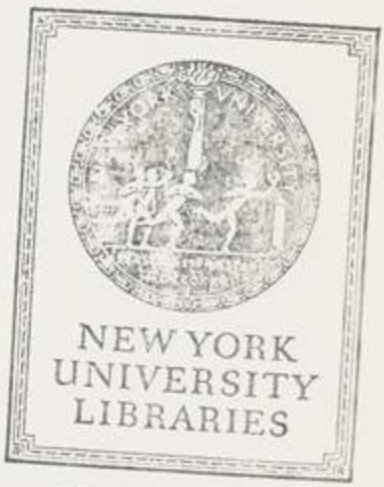

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

al-Arsūzī, Zakī.
/al-Ummah al-ʿarabiyah/

الأمة العربية

ماهيتها ، رسالتها ، مشاكلها

بقلم
زكي الأرسوزي

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية
١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

Near East
DS
223
.A78
c.2

تعهد

المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع

للنشر والتوزيع
بدمشق

الناشرون

دمشق : دار اليقظة العربية - شارع المتنبي تليفون ١٢٢٦٤
القاهرة : مؤسسة الخانجي - شارع عبد العزيز تليفون ٤٣١٤٨
بغداد : مكتبة المثنى - شارع المتنبي تليفون ٨٣٥٨٨
بيروت : المكتبة الشرقية - شارع النجمة تليفون ٣٣٢٣٤

نشوء القومية في العصور الحديثة

نفصح عن رأينا في الاختلاف بين وجهتي نظر القرون الوسطى والحضارة الحديثة في الدنيا بصورتين مجازيتين استعرناهما عن أحد أعلام المفكرين المعاصرين هما : الجرة والبذرة • كانت الكائنات في علاقتها بباريها تتراءى للمتأمل فيها في القرون الوسطى على مثال الجرة في علاقتها بصانعها الجرار • فكما تتلقى الجرة من صانعها الشكل والقوام ، فكذلك الكائنات تتلقى من الاله نسغ كيانها وغاية كمالها • ويبقى الصانع المبدع ، في الحالتين ، خارجا عن طبيعة صنعته ومستقلا عنها • غير أن الكائنات في الحضارة الحديثة تتراءى للمتأمل فيها منطوية على مقوماتها ، القوانين ، انطواء البذرة على مبدأ نموها ، وعلى النزعات التي بها تتعين حدود طبيعتها • واذا ظهر الاختلاف في مفهوم الدنيا بين القرون الوسطى وبين الحضارة الحديثة على مثال الاختلاف بين تركيب الآلة وبين بنية الاحياء ، فقد أخذ الذهن يتحول عن ثنائية تعالى فيها البارى عن الطبيعة حتى الافتراق ، الى وحدانية أصبحت فيها الكائنات ذات بنيان رحماني مشترك •

نقدم هنا جدولا نقيم فيه المقارنة بين الوجهتين المتقدمتين ، فنكشف بهذه المقارنة عن الصفات المميزة لكل منهما :

ا ـ كان المجتمع في القرون الوسطى يقوم على نظام الطبقات• وكانت الصورة الحسية المستفاضة لهذا النظام ذي الرتب هي أن الارض وسط بين عالم علوي وآخر سفلي ، فالاول يتدرج صعودا من فلك الى فلك حتى ينتهي بعرش الاله ، والآخر يتدرج نزولا في الوجه

المقابل لنا حتى ينتهي الى الدرك الأسفل . وأما مقام الناس في المجتمع فيتبع مدى طوعية كل منهم لصوغ شخصيته بالهيئة التي ارتأتها العناية الالهية كمثل أعلى ، وهي محمد الذي هو أول خلق الله ، في الشرق، والمسيح الذي هو كلمة الله ، في الغرب . وطريقة التشبه بالقدوة هي السنة ، كما أشار اليها المسيح بقوله : أنا الطريق .

آ ـ غير أن الدنيا في الحضارة الحديثة قد تحولت من صورة حسية الى مفهوم عقلي قوامه : أن الارض جرم في المنظومة الشمسية تخضع هي واجرام الاخرى سواسية لقوانين طبيعية ، بحيث لم يبق لكلمتي : علوي وسفلي ، من معنى.وأي معنى لكلمتي : فوق وتحت بالنسبة الينا ، ما دمنا نرى ، نحن سكان المنطقة الشمالية من الارض ، سكان المنطقة الجنوبية منهاتحت أقدامناوهم يرونابدورهم تحت اقدامهم؟ ما دام يرى كل منا نحن الفريقين أقدامنا على الارض قبالة بعضنا ورؤوسنا مدلاة في الفضاء ، هذه الصورة كانت تبدو للناس في القرون الوسطى ممتنعة ، ولكن ما ان اكتشف نيوتن نظام الجاذبية حتى أصبح الممتنع معقولا .

وكانت التجربة قد سبقت الى تبيان صدق النظرة الحديثة في الدنيا ، باكتشاف كريستوف كولومبس لامريكا .

لقد نتج عن هذا الانقلاب في وجهة نظر الانسان في الدنيا أمور هامة منها : قيام مفهوم ذهني عن الكون مقام الصورة الحسية المتعارف عليها ، ومنها قيام المعنى النسبي ، نسبة الحوادث وتلازمها في حدود الطبيعة كتلازم التمدد والحرارة في المعادن مثلا ، مقام المعنى المطلق ذي الطابع الاخلاقي المستوحى من تمييز الاعمال بين الفضيلة والرذيلة ، ومنها قيام نظام المساواة المستوحى من خضوع الحوادث الطبيعية ، من الذرة الى الافلاك ، للقوانين الطبيعية مقام النظام الرتيب المستوحى من تفاوت اعمال

الانسان في الدرجات ، في كل من الفضيلة والرذيلة ، ومنها قيام مفهوم الحتمية مقام العناية .. الخ ...

ب ـ كان الناس يعتقدون في القرون الوسطى بأن السلطة تنزل كنعمة من السماء لمن تختاره العناية . والمصطفى للرسالة هو ومن يخلفه في المهمة مسؤول عما عهد اليه أمام الديان في الآخرة ، لا أمام الجماعة .

ب ـ غير أن السلطة في الحضارة الحديثة أصبحت تصدر عن الجمهور . وللجمهور وحده الحق في انتخاب رئيس الدولة . وهو أي الجمهور ، يوكل أمر المهام العامة لمن انتخب ويجعله مسؤولا عن تصرفاته العامة أمام ممثلي الامة .

ج ـ كانت القوانين في القرون الوسطى آيات منزلة ، على صورة أوامر ونواه . فليس لاحد الحق في تعديلها أو تبديلها . واما الرسول فتقف صلاحيته عند تفسيرها وكما تقف صلاحية الائمةعند توسيعها بالقياس على مسؤولياتهم الخاصة .

ج ـ أصبحت القوانين في الحضارة الحديثة تمثل ارادة الامة ، فتطور مع تطور الجماعة ، أي انها مستخلصة من طبيعة الاشياء وليست منزلة بطريق الوحي من السماء .

د ـ كانت قد شاعت في أوروبا المسيحية طيلة القرون الوسطى فكرة الخطيئة ، خطيئة ابن آدم الموروثة عن جده الاكبر لهبوطه من الجنة . وكان يلازم هذه الفكرة فكرة أخرى وهي تقصير العقل من جراء الهبوط عن معرفة الحقيقة ، وعن تميزها من الخطأ ، بحيث أصبح الوحي أمرا ضروريا لخلاص الناس . ومن أولى بهداية العوام من رجال الكنيسة ؟ ومن هنا نجم الاعتقاد بمبدأ التمايز بين المؤمنين ، المبدأ الذي هو أحد أركان النظام الاقطاعي في القرون الوسطى .

د ـ كان لاكتشاف القوانين في الطبيعة ، كقوانين كبلر ، غاليله، ديكارت ، نيوتن .. الخ ... ولصلاح العقل لهذا الاكتشاف ، الاثر

الاعظم في اعادة الثقة للانسان بنفسه ، بأهليته لمعرفة الحقيقة وتميزها من الخطأ • افلا تتضمن معرفة القوانين الطبيعية النبوءة ؟

واذا كانت النفس تنطوي على معيار تميز به الحقيقة من الخطأ ، وهو البداهة ، واذا كانت تقدر وقوع الحوادث بالاستناد الى معرفة القوانين ، فبماذا يختلف اذن أولو العلم عن العوام ؟ أفي الحقيقة الانسانية وهي العقل ؟ أم في أمور عرضية ثانوية ؟ •

هكذا كان اكتشاف الارض كجرم في المنظومة الشمسية ، حيث تخضع هي والاجرام الاخرى لقوانين حتمية ، عاملا أساسيا في تحويل الناس عن التفسير المثالي للاشياء الى تفسير واقعي لها • ومما دعم وجهة النظر الجديدة اكتشاف قوانين السقوط من قبل غاليله ، تلك القوانين التي أماطت اللثام عن اسطورة تميز الاجسام بين أرضية تنزع الى الانحدار نحو الاسفل ، وبين سماوية تصبو الى الاعلى • هذا الانقلاب رافقه مفهوم جديد عن علاقة الانسان بالطبيعة ، وهو أن ما يبني العقل بناء سليما تحققه التجربة ، والتجربة معيار لصدق المحاكمة • انه لمفهوم يلازم العلم الحديث كمسلمة • كذلك العقل في النفس والنظام في الطبيعة ، انما هما يمثلان للمتأمل المعاصر وجهتين لنفس الحقيقة •

ولما قال ديكارت عبارته المأثورة : العقل أعدل الامور توزيعا بين البشر ، مستندا بقوله الى شيوع البديهيات ، كان يجمل وجهة نظر الحضارة الحديثة في مؤهلات الانسان لبناء حياة جديدة شعارها : الحرية والمساواة ، حرية تعيين المرء لسلوكه حسب مشيئته ، وتساوي الناس في حق تعيين المصير العام •

وفي الواقع ، اذا كانت النفس تنطوي على عقل مؤهل لمعرفة الحقيقة ، وعلى وجدان ينير له سبيل الفضيلة ، فلم لا يملك الانسان الحق في تنظيم سلوكه ، وفي الاشتراك ، كمواطن ، مع اخوانه في

تنظيم الدولة ؟ توكيدا لهذا الحق هبت الشعوب في وجه الاستبداد والاحتكار مؤكدة ارادتها في الحياة .

وهكذا بدأ الانسان يطمح في أن يكون حكما في مصيره وفي مصير الانسانية ، وهل من وسيلة لدى الجماهير المستيقظة على طلعة الحضارة الحديثة لقهر الاستبداد والاستعمار غير النضال ؟ وأي شعار أقرب لجمع شمل المناضلين من شعار الاخوة ؟ أليست كلمة « آخ » التي هي أصل الاخوة ، تشير الى شعور الاخوان بألم لوجع بعضهم ؟ أو لاتتضمن هذه الكلمة الدعوة الى رفع الحيف بعضهم عن بعض ؟ ان كلمة « أمة » هي والأم ، تشير ان باشتقاقهما من نفس المصدر ، الى أن الامة امتداد للاسرة ، بل هي جذر لرابطة الاخوة .

فمن أجل توكيد الانسانية الجديدة لجأت الطليعة اذن ، الى أصول الحياة ، الى تراث الجماعة تزكي به روح النضال عند الجمهور ، وتشحذ الهمم عند المناضلين . وأي شيء أدعى للاقدام على جليل الاعمال من ذكريات الابطال ومناقب الاجداد . ولكن ما ان ترعرعت الحياة الجديدة حتى بعثت لغة الأم ، التي طالما أهملت من أجل لغة الكنيسة ، وحتى بعثت تاريخ القوم الذي طالما أهمل من أجل قصص أنبياء اليهود المسجلة في التوراة .

وهكذا تحول الشعار عن الاخوة في الدين الى الاخوة في الطبيعة بين ذوي القربى ، بل هكذا أخذت النظرة المثلى في علاقة الطبيعة بما وراءها ، عالم الغيب ، تنحسر لتقوم مقامها نظرة أخرى مستوحاة من العلاقة الواقعية بين الحوادث في الطبيعة ، وبين الافراد في الهيئة الاجتماعية ، بحيث تم الانسجام بين وجهتي الحضارة : الطبيعة والانسانية .

ولما اشرأبت النفوس الى ينبوع الحياة متخطية بصبوتها ما نسجته العقلية (الاقطاعية ـ الرجعية) من افرازات ،أضحى الوجدان القومي مصدر المثل العليا ، ومنهل الشرائع والانظمة ، حتى اذا ما وقعت الحرب بين دولة وأخرى في هذه المرحلة التاريخية فانها تقع باسم الامة ، واذا ما حصل انسجام بين الدول فمرد ذلك الى التوافق بين مصالح الامم .

ذلك هو طابع المرحلة التاريخية الراهنة ، كما أن لكل مرحلة طابعها .

ان التفكير القومي ، وان كان أصيلا في الطبع البشري وملازما له ، الا انه لم ينطلق صرفا في أية مرحلة من تاريخ البشر انطلاقه في الحضارة المعاصرة . اذ أن جميع مظاهر الحياة كاللغة والتشريع والفنون تبدو في هذه الحضارة كتجليات لعبقرية الامة .

ومع ذلك ، فان أعلام الامم لم تتفق في الرأي على ماهية الامة ، فكل منهم يستوحي وجهة نظره من بنيان أمته الخاص . ففي فرنسة مثلا تقام الحياة السياسية الاجتماعية على مبدأ التمثيل والتبني ، تمثل الدخيل وتبني الاغيار ، لأن فرنسة نفسها محصلة عوامل تاريخية ترجع بالنشأة الى روما التي حصل تكوينها من انصهار شعوب مختلفة في بوتقة ثقافية موحدة . ونحن اذ نقول « من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم وفيهم » نلخص مبدأ الجوار والمصلحة ، المبدأ الذي يقوم عليه كيان فرنسة ومن قبلها روما : فكأن الانسانية ، بحسب وجهة النظر تلك ، تغرس في النفوس غرسا،وأما وسيلة الغرس فهي التربية في حالتيها المقصودة وغير المقصودة .

وبينما كانت فرنسا تقيم كل الوزن للظروف الطبيعية ـ التاريخية في تكوين الأمة ، كما أفصح عن ذلك أحد أعلامها ارنست رينان بقوله : « الأمة : ذكريات وأمان » ، كان الالمان يرجعون مظاهر الحياة

العامة المشتركة الى عبقرية مبدعة • وبحسب هذا الرأي ان الحياة تنشئ بالغريزة بنية الجسد والمؤسسات العامة • وليس الاختلاف بين ما قد تجلى في الوجدان وبين ما ينبض من تحت الشعور الا اختلافا في درجة الوضوح بين مراحل مختلفة لنفس الوثبة ، ونحن نلتقي معهم هنا أيضا في كلمة « جنس » التي قد حصل تكوينها من « جن – اختفى » مع الحاق حرف « س » المعبر عن الحركة ، أي عما ينبعث من تحت الشعور •

ولما كان الدم ينتقل من الاجداد الى الاحفاد دونما انقطاع ، رغم ما يظهر به الافراد من مظاهر الانفصال والاستقلال ، فقد اتخذت وسيلة الانتقال هذه كقاعدة طبيعية لعبقرية الامةومستودعا لخصائصها، بحيث تصبح العلاقة بحسب وجهة النظر هذه ، بين الدخيل والامة ، بمثابة العلاقة بين « الطبوع » والبهيمة ، التي تتطفل عليها ، فمهما طمست الفوارق الخارجية بين المتطفل والفريسة تبقى الدورة الدموية متعاكسة •

وهكذا كان التباين في الرأي بين فرنسة وألمانيا ، على مثال التباين بين قطبي الحياة : النسب والجوار ، الرحم والمصلحة •

وأما نظريات أعلام الامم الاخرى في ماهية الامة ، فهي تلونات لأحد الاتجاهين السابقين ليس الا •

الامة والبيئة

ما من أحد ينكر ما للبيئة من تأثير على الاحياء ، من أنواعها الابتدائية الى الامم الراقية في الحضارة • فأي منا لم يلحظ ما للاقليم من تأثير على استحالة البذرة من نوع « الجلب » الى النوع البلدي (كالبطيخ مثلا) ؟ وأي منا ألم بلغة أجنبية ولم يلحظ ما لهذا الالمام من تأثير على تكوين عقليته تكوينا خاصا ؟ وكما يستعير الشاعر من البيئة صورا يعبر بها عن الهامه ، يتحدد مصير الامم أيضا بموقعها الجغرافي وبطبيعة تربتها • هكذا تحدد مصير كل من فينيقيا وانكلترة بموقعهما الجغرافي ، وهكذا يرجع الشبه في مصير كل من انكلترة واليابان الى المماثلة في موقعهما ، الاولى في المحيط الاطلنطي،والاخرى في المحيط الهادي •

ولكن تأثير البيئة على النوع والمجتمع يتبع تفسير الحياة فيهما لهذا التأثير ، وهو ، أي التأثير ، في اتجاه عبقريه كل منهما • فاذا زرع بذر البقدونس والبصل ـ مثلا ـ في شروط مماثلة نما كل منهما بحسب طبيعته الخاصة • وهل تختلف الحال مع الامم عما هو مع أنواع النبات • ألم يقم في منطقة ازمير كل من شعبي اليونان والاتراك فماذا كان من أمرهما ؟ شق اليونان القدماء من هذه البقعة من العالم طريق التفكير الحديث في العلم والفلسفة ، وأما الاتراك فلم تبدر عنهم حتى اليوم بادرة من بوادر الحضارة •

ان الاحياء اذا كانت تتلاءم مع البيئة ، فان الحياة تستمد من البيئة القدرة التي تنشئ بها البدن كنظام تعبر به عن وجهتها ، وكمجموعة آلات تجعل بها الظروف طوع مشيئتها • فمع أن الحياة

تتطور وفق مقتضيات البيئة ، فهي في تطورها مصير مستقل عن الحوادث الطبيعية في تلازمها تلازما مستديرا ، وفي خضوعها لمبدأ الكم والمسافة ، المبدأ الذي لخصه نيوتن بقانون الجاذبية الكونية • تعني ان العمر يتضمن العمران كما يدل اشتقاق الكلمة ، وان الغرض الا بعد مدى ذو أثر أعمق في استهواء الانسان • هذا بينما تخضع الحوادث الطبيعية لقانون السببية ويبقى تأثيرها متناسبا مع قرب المسافة•

والاحياء يستقل مصيرها عن تأثير البيئة بصورة متناسبة مع نمو عدائها ، مع نمو المدة بين انعقاد الحياة على الرشيم وبين الشيخوخة • فاذا كانت الانواع الابتدائية ذات العدان القصير الامد كالبرغش مثلا تخضع لاراجيف البيئة ، فان الانواع الراقية ذات العدان الطويل الامد تصمد في وجه تقلبات مواسم السنة ، ولكن الانسان ، وعدائه يبلغ الخمسين سنة ، فيضيف الى أمر الاستقلال عن أراجيف البيئة ، أمر ادارة الحوادث وتوجيهها •

« ان الحياة ، ككل منظومة ، ذات معنى وصورة: تمس بالصورة الضرورة وتسمو بالمعنى الى الحرية ، انما هي مبنى قاعدته في الارض وأوجه في الملأ اعلاى • اذا مست الحياة الضرورية بمنظومة الخلايا التي يتألف منها الجسد فهي تستمد من هذا التماس قوتها الذي يقوم عليه عدائها • حتى لكأنما العدان ، رفرف تنشر عليه فحواها كما ينتشر الالهام على المنظومات الاهتزازية التي تنطوي عليها أنغام الانشودة ، أو لكأنما هي تكشف عن غنى فحواها بصورة متناسبة مع مدى اتصالها هذا بالطبيعة » •

والامم يستقل مصيرها عن ظروف البيئة متناسبا مع مدى تقدمها في الحضارة ، أي مع مدى اتصالها بالطبيعة • ولنأخذ ، على سبيل المثال ، اليمن وبريطانيا : فالاولى تكتفي على نفسها وتسعى جهدها ان تستغني عن العالم ، حرصا على سلامتها ، والثانية تحاول ان تزيد من الروابط السياسية ـ الاقتصادية بينها وبين جميع أنحاء العالم •

فبربك ، ايهما تخضع الظروف لمآربها ؟ أدولة اليمن أم بريطانيا ؟ وعبقرية أيهما تتكشف بحسب طبيعتها ، أعبقرية العرب في اليمن ، أم عبقرية الانكليز ؟ .

ولكن مصير الامة في الاستقلال عن أراجيف البيئة يتبع ، بصورة خاصة ، تقدمها في مضمار الثقافة ، أي أنه يتبع وعي أبنائها ونمو مؤسساتها ، حتى اذا تعارضت الاسطورة في نشأة الانسان عن كل من فرعي العرق الابيض : الآريين والساميين ، فاعتبر هؤلاء الانسان ابن السماء ، واعتبره أولئك ابن الارض ، فان كلا من السلالتين استوحى وجهة نظره من كيانه الخاص . أعني أن الشعوب الهندية الاوروبية اتجهت نحو الطبيعة فاسترسلت في ملاءمتها لظروف البيئة دائبة في استرسالها على اقامة العلاقات الاجتماعية السياسية على مبدأ الجوار والمصلحة ، بحيث انها تحولت الى مجتمعات ذات تنوع تبعا لتنوع الاقاليم الطبيعية . هذا بينما كانت الشعوب ذات الاصل العربي السامي تتجه نحو السماء التي هي رمز الثقافة متخطية بصبوبها الحواجز بين الاوطان ، متخذة رائدها المثل الاعلى .

يخيل للناس ان العلاقة بين الاحياء والبيئة تقتصر على سد الحاجات وعلى اقتباس الصور عن طريق الحواس ، والحقيقة ان العلاقة المذكورة أبعد مدى مما خيل لاول وهلة . انها تتناول أيضا نظام الجسد بأجمعه ، ما يتعلق ببنيته الداخلية وما يتعلق بموقفه من العالم ، وذلك ما حمل على الظن بأن الحياة معنى البيئة وهي منها بمثابة المصمم من المبنى . أفليس لكل اقليم نوعه البشري الى جانب أنواعه النباتية والحيوانية ؟ أو لا تدعو البيئة لدى كل تبدل في الحياة الى اعادة النظر في كيان الجسد ؟ واعادة النظر في نظام كيان الجسد هذه تحتمل كل الدرجات من تحول يطرأ عرضا على كيان الفرد الى ظهور نوع حيواني بدئ في الطبيعة . حتى لكأنما

هو مغزى الانقلاب من وجهة نظر معينة . واذا تبـــدل الدور ولم تستطع الحياة ايجاد منظومة من الرجاع تتلاءم بها مع البيئة المستجدة اندثر النوع المتبلورة فيه النزعات حتى الجمود .

« افلم تظهر الانواع الحيوانية بالتدرج على مسرح الطبيعة مزودة بحواس بديئة وبميول جديدة ؟ او لم ترجع الحياة ، ببنيانها المتكامل هذا حدود الضرورة ، أي ألم تقشع بالحواس ما كان مغلقا ،وبالميول ما كان مستعصيا » ؟

هكذا يتعدى الاختلاف بين الانواع الحيوانية حدود الاختلاف في أجهزة التلاؤم الى التفاوت بالعمق أيضا . ولو لم تتفاوت الانواع بالعمق ما صنفت في سلم ذي درجات .

واذا كانت الحياة تدل بانسجام مظاهرها وبتقدم أنواعها عـلى نزعة تدفع بالاحياء الى التعالي نحو آفاق رفيعة ، فان الاهم هي ايضا تدل على وجهتها بمآثر ابنائها وبنبرة الايقاع في جدول قيمها . وهل القوانين والعرف والتقاليد سوى صور مصطفات بقصد الافصاح عن عبقرية الامة ووقايتها من تأثير أراجيف البيئة ؟ ان مثل المؤسسات العامة في تعبيرها عن حقيقة الامة كمثل أجهزة الكائن الحي في تعبيرها عن وجهة نظر النوع في الحياة ، والتعبير في كلتا الحالتين نتيجة مساومة مع البيئة ، فكما ان يد الانسان وحافر الفرس ومخلب العصفور وخف الجمل تحولات لذات المخطط اقتضتها الحاجة الى الملاءمة في ظروف البيئة ، فكذلك المؤســـسات العامـــة ترمي الى نفس الغاية . ولكن المؤسسات تجليات للحقيقة وهي تقترب من غرضها بنسبـــة انكشاف العبقرية وتحررها والا فالى م يرجع الانسجام بين أعمـــال الاجيال في تشييد صرح مجتمع ذي مظاهر ذي مظاهر متلازمة متممة عـــلى مثال اللوحة الفنية اذا لم يرجع الى حقيقة الامة رجوع عناصر اللوحة الى وحدانية الالهام ؟ .

تكشف المؤسسات العامة عن خطوط سيماء الامـــة المرتسمة سجايا في بنية أبنائها • وتقاس اصالة الامم بمدى التجـــاوب بين الحدس المنطوية في نفوس الاخوان وبين المؤسسات المشيدة من قبل الاعلام •

ونحن نستخلص من ذلك ان الانسانية تتمم ما بدأت به الحياة، والحضارة من الانسانية بمثابة الجسد من الحياة • وانه على تقـــدم كل من الجوين هذين : الحضارة والجسد يقوم أمر تحرر المعنى فاقتراب الظواهر من الحقيقة ، سواء أكان الامر في عبقرية الفرد أو في عبقرية الامة •

الامة في الحدس العربي

نحاول ان نستجلي هنا الحدس العربي في ماهيـــة الامـــة ، مستندين في محاولتنا هذه الى مظاهر حياتنا العامة . فنبـــدأ بايضاح كلمة « امة » وننتقل بعدئذ الى خبرة اجدادنا المتبلورة امثالا في تراثنا، ثم ننهي اخيرا موضوع بحثنا باظهار الكلمات العربية من حقيقة الامة التي انشأتها افصاحا عن ذاتها بمثابة الانغام من الهامها في الانشودة .

فأما كلمة « أمة » فهي و « الأم » ترجعا الى فعل « أم » المصدر المشترك بينهما ، والام في اسرة « أم » هي صورة الامة الحيـــة . فكما ان الام يصدر عنها ابناؤها واليها يجتهون كمنهل للحياة ، فان الامة ايضا مصدر الاخوة بين المواطنين وغاية ما يصبو اليه الاخوان من امنية . حتى اذا ما اسقطبت المعاني المتشعبة من فعل « أم » متقاربة في الذهن انجلى الحدس العربي في الامر بوضوح اتم : الام : الوالدة ، أصل الشيء . الامام : من يقتدي به ، الخط الذي يمد على البناء ليبني مستقيما ، من يمثل عليه المثال ، الطريق الواضح الامة : الجماعة ، الطريقة « الخ » هكذا تبدو الامة في الحدس العربي كوجدان قومي تصدر عنه المثل العليا وتقدر بالنسبة اليه قيم الاشياء .

ولكن هل شط الذهن العربي اذا نحا المنحى المثـــالي في فهم الامة ؟ الا يتفق هذا الذهن في حدسة مع واقع الامر ؟ والا فكيف يفسر الانسجام بين مظاهر الحاية العامة ؟! أبجملة مصادفات سعيدة ثبتها المجتمع بالتربية ؟ ام بعبقرية مبدعة تبدع مظاهرها وتوجهها نحو الحرية ؟ وبتعبير آخر هل الامة مفهوم يبنيه الذهن تلخيصا لعوامل

(تاريخية طبيعية) ؟ ام هي آية (Idée) أصولها في الملأ الاعلى وتجلياتها القطبيعية كنظام مندرج في بنية الافراد وفي المؤسسات العامة ؟

ان خبرة أجدادنا المتبلورة في الامثال تتفق مع الحدس المتضمن في الكلمة : « الولد سر ابيه » ، « كادت المرأة تلد أخاها » ، « حذوا البنات في صدور العمات » ، « اذا بار الولد فثلثاه للخال .. الخ . هذه أمثال يشير كل منها الى ان الحياة تنشيء بالغريزة ، الاجداد والاحفاد على مثال مشترك ، تنشيء سماتهم واصول تفكيرهم معا . ان الولد ينزع لذويه ولو لم يقدر لهم مقابلة بعضهم بعضا .

واذا تعارف العرب في الجاهلية على علم القيافة الذي يقوم على الاستدلال بهيئة الانسان على نسبه ، فقد هدتهم الملاحظة والتجربة الى رسوخ قواعد الوراثة . حتى ان الاسلام نفسه أخذ بهدى الاحكام في الشرع . واليك ما ورد في الصحيح فيما يتعلق بهذا الامر .

« ان مجزر الاسلمي دخل يوما الى الرسول فرأى أسامة بن زيد وزيدا وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فنظر اليهما مجزر الاسلمي وقال : ان هذه الاقدام بعضهما من بعض .. فسر بذلك النبي وقد فسر الاصفهاني هذا النوع من المعارف بان الله تعالى خص بذلك العرب ليكون سببا لارتداع نسائهم عما يورث سلب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة .

كان العرب اذا نظروا الى عدة أشخاص الحقوا الابن بابيه والاخ بأخيه والقريب بقريبه وميزوا الاجنبي من بينهم « وأما حكمة اهتمام العرب بالنسب فنجدها في جواب اياد عندما قيل له : من أين عرفت ان الرجل يدعى لغير أبيه ؟ فقال : لاني رأيته يتكلف ما يعمله ونجدها أيضا في أقوال مأثورة كهذه « يد الحر ميزان » « بالبر يستعبد الحر » الخ ..

وقد فطن العرب للعلاقة بين ما ظهر من الحياة وبين ما ضمر فيها من استعدادات فوضعوا علم الفراسة كسجل لخبراتهم في هذا الشأن . وقد أيد القرآن حدس الجمهور بآيات كهذه : « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » ، تعرفهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » حتى العلاقة بين ما نسميه اليوم بـ (تحت الشعور) و (الشعور) لم تخف على الذهن العربي .

وليست الزكانة الا المبحث المتعلق بصلة الضمير ...؟ بالوجدان ؟ ... وتبيانا لذلك نقتبس المثال الآتي من كتاب مفتاح السعادة لابن القيم :

حكي عن المهدي انه رأي رؤيا ونسيها فأصبح مغتما بها فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل والتعبير وكان حاذقا واسمه خويلد . فلما دخل عليه أخبره بالذي أراده فقال له : « يا امير المؤمنين الى الحركة » فغضب المهدي وقال سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدري ما هو ومسح بيده رأسه ووجههوضرب بها على فخذه، فقال له اخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين قال هات قال : رأيت كأنك صعدت جبلا ، فقال المهدي : لله أبوك ياسحار ، صدقت ، قال ما أنا بسحار يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك بنزولك الى أرض ملساء فيها عينان ما لحتان ثم انحدرت الى سفح الجبل فلقيت رجلا من فخذك ، قريش ، لان أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذه فعلمت ان الرجل الذي لقيته من قرابتك قال : صدقت » .

ونحن نضيف خبرتنا الشخصية الى خبرة اجدادنا في هذا الشأن فلما سرحت من وظيفتي كمدرس من قبل سلطة الانتداب سنة ١٩٣٤ لجأت الى القرية حيث كانت تقيم والدتي وكنت واياها نتبادل الحديث في الليالي الممطرة ، وكم كانت دهشتي عندما رأيت

تأملاتي تلتقي مع حدسها في امهات المسائل • فلم تكن دراستي المديدة الا سببا لاستجلاء الحدس المشترك بيننا ، الحدث المنطوية عليها نفسانا ولذلك فاني اعتقد بان الاختلاف بين فرد وفرد من ابناء الامة انما هو اختلاف بدرجة الوضوح في الامور المتعلقة بالاصول ، فما هو حدس مبهم عند الجمهور يتحول الى بصيرة نيرة عند القادة • وذلك ما يحمل على الاعتقاد أيضا بأن ما يتجسد من شبه بين الافراد المنحدرين من ذات الاصول ، وبين ما يظهر من انسجام في المؤسسات العامة يرجع الى آية الامة المتحققة عبقرية في الطبيعة ، يرجع الى تجربة الاجداد المثلى في اصول الحياة ، وليس التاريخ الا سجل هذا التحقيق كمصير حصل من انتصارات الحياة على القدر •

تظهر العبقرية العربية بوضوح في انسجام مؤسساتنا العامة وفي انسجام كلماتنا التي تقوم هـذه المؤسسات على استجلاء حدسها • اليس من الغرابة بمكان ان تكون هذه الكلمات قد وضعت في عصور متفاوتة وفي أقاليم متباعدة وهي مع ذلك ذات انسجام بالمعنى ؟ انه يخيل للمتأمل فيها انها وجوه مختلفة لذات العبقرية • واليك بعض ما ورد بهذا الصدد في كتابنا « العبقرية العربية في لسانها » :

« تبدو الامة البدائية في الكون حاملة سيماءها بصورة مجملة فتتفتح عنها بتجاوب تجلياتها بين قطبيها : قطب ترسم به في بنية ابنائها معرفة متبلورة وفي الكون عالما تنعكس عنه الطبيعة محددة امكانيـة ادراكهم • وقطب آخر ترتقي اليه النفوس من خلال هذه التجليات المستشفة في تساميها بنور ذاتها » •

وايضاحا لما تقدم نورد هنا بعض الامثلة المقتبسة من لساننا فكلمة « نب » مثلا المؤلفة من حرف « نون » و « باء » تعبر بحسب مخرج كل من حرفيها عن الصميم « بالنون » وعن الظهور ـ « بالباء » وبجملتها تفيد الانتقال من الداخل الى الخارج فالظهوز ـ التعالي •

وعند التحليل تظهر جميع الكلمات المنتسبة الى اسرة هذا الحدس – اتجاهاته الاساسية :

١ – لما كان الصوت أبرز ما يخرج من صميم الانسان فان أكثر المصادر قد تضمنت مشتقات تشير اليه : نب التيس : صاح ، نبأ : صات خفيفا ، النبأة او النبؤة : الصكوت الخفي او الهاتف ، نبخ: كان شديد الصوت جافي الكلام ، نبح الكلب : صات ، النبخة : النكتة ، نبر المغني : رفع صوته بعد خفض ، نبس بالمجلس : تكلم • انتبض القوس : جذبها ليصوت بها ، انبط الكلام : استخرجه ، نبع الرجل : قال الشعر وأجاده •

٢ – هنالك اتجاه آخر تظهر على الخصوص الصور الحسية والخيال الذي انشيء منها وهو الصعود والتعالي : نبأ الشيء ارتفع ، النبيء : المكا نالمرتفع ، نبت : شأ ونما من الارض ، نبى فلان : غضب ، ظهرت كوامنه ، النبخة : الاكمة ، نبخ العجين : اختمر وارتفع ، الارض النبخاء : المرتفعة ، المنبوذ : الولد الذي تلفيه امه ، نبز الغلام: ترعرع ، نبز الجرح : تورم ، النبض : القليل من البقل اذا طلع ، نبق الشيء : خرج ، نبك المكان : ، النبكة المكان المرتفع الارتفع : اكمة ، النبأة : المرتفع المشرف ، النبيء من الارض : ما ارتفع منها ، النشوء : العلو والارتفاع •

٣ – ولما كانت الصورة الصوتية البدائية بانية ونشأتها انسانية فان الحدس يتفرع من المعاني الاصلية الآتية : النبوة والنبي وصورته الحسية : الطريق الواضح والمكان المرتفع ، والنبوغ والنابغ وصورته الحسية : غبار الرحى الدقيق ، والنبل والنبيل وصورته الحسية : النبال والسهام (والفروسية) النباهة والنبيه / اليقظة من النوم والشرف •

يبدو التوافق في الامثلة المتقدمة بين المعقول والمحسوس دقيقا والانسجام في معانيها شاملا رغم ان هذه الكلمات قد ابدعت في عصور متفاوتة وفي أقاليم مختلفة ؟!

فكأن هناك عبقرية قد انطوت عليها نفوس ابناء هذه الامة كافة فعبر كل منهم عنها من وجهة نظره الخاصة وهم منها يستمدون نسغهم واليها يصبون كمثل أعلى وبها تنسجم ثقافتهم (بنيانهم الانساني) مع الميول التي تضمنتها نفوسهم .

ويؤخذ من هذه الامثلة أيضا ان الحدس فيها تتقدم على الصور الحسية والمفاهيم العامة التي تحاول التعبير عن اتجاهاتها الاساسية كتقدم الميل على الاشياء (حاجاته) التي تحققه فيحدد انتباه الفرد ويوجه اختياره فيكشف عن قرارة الحياة المرتسمة على الكون بآثاره

تلك هي الامة العربية عبقرية أبدعت أداة بيانها فافصحت بهذا الابداع عن حقيقتها . توحي كلماتنا بحقيقة امتنا كما يوحي انسجام الالفاظ في القصيدة بالفنان الذي أبدعها . ولما كان صرح مؤسساتنا قد شيد من قبل أعلام امتنا باستجلاءهم ما ضمر في كلماتنا من معنى جاء كياننا القومي متلازم المظهر تلازم الاعضاء في الجسد. ان الحدس في الكلمة العربية من صرح الثقافة بمثابة البذرة من الشجرة . وانما شأن الخيال في استجلاء الحدس كشأن البيئة في انماء البذرة . ذلك ما دعانا الى القول بأن أمتنا ليست محصلة ظروف تاريخية بل انها معنى يبدع تجلياته ويوجهها نحو المزيد من الحرية . وذلك ما دعانا الى الاعتقاد بان مثل ظهور الامم ذاب الطابع ابدي، على مسرح التاريخ كمثل ظهور الانواع على مسرح الطبيعة .

الامة كامتداد للاسرة

تقوم الامة على المودة بين الاخوان قيام الاسرة على التعاطف بين الاخـــوة . « ان الرحم اذا تماست تعاطفت » . وكمـا ان غريزة الامومة تسبق التأمل في حكمة وجود الحياة ، فكذلك شعور الفـرد بمصير امته يتقدم على كل فلسفة في هذا الشأن . وها نحن نقدم هنا بعضا من الحوادث التي تؤيد رأينا :

١ ـ قامت في الجاهلية مناظرة بين النعمان بن المنذر وبين كسرى ملك فارس ، فقال النعمان لكسرى : أي أمـة تقرنهـا بالعرب الا فضلتها » . قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة السنتها وشدة عقولها وافتهـــا ووفائها ... واما حسن وجوهها والوانها فقد فضلهم في ذلك عـــلى غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والـروم المقشرة .. واما انسابها واحسابها فليست امة من الامم الا وقد جهلت أباءها وأصولها ... بينما العرب يسمون اباءهم أبا .. فابا أحاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعي الى غير أبيه .. واما سخاؤها فيرضى العربي أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر .. وأما دينها وشرفها فان لهم شهرا حرما وبلـدا محرما ، فيلقى الرجل قاتل أبيه وأخيه وهـــو قادر على أخذ ثأره فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . واما وفاؤها فان أحدهم يلحظ اللحظة او يومىء الايماءة فهي ولس (عهد) وعقد لايحلها

الا خروج نفسه ، وان احدهم يرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته ، وان أحدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته او تفنى قبيلته لما احتقر من جواره ، وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون أمواله ، وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فانما يفعله من يفعله منهم بالاناث انفة من العار وغيرة من الزواج .. وأما فقدان الملك عندهم فانما بسبب انفتهم من دفع الخراج ، حتى قد حاول كلهم أن يكونوا ملوكا .

ولما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم يبعث الى اكثم بن صيفي وحاجب بن زراه ، فلما قدموا عليه قال لهم : قد عرفتم هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منها وقد سمعت كسرى مقالا تخوفت ان يكون لها غورا ويكون انما أظهرنا لامر اراد ان يتخذ به العرب خولا (عبيدا) كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج كما يفعل بملوك الامم الذين حوله ...

٢ ـ في أثناء حصار القسطنطينة نظر يزيد الى قبتين بنيت عليهما ثياب الديباج،فاذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من احداهما أصوات الدفوف والمزامير،واذا كانت الحملة للروم ارتفعت أصوات من الاخرى . فسأل يزيد عنها فقيل له هذه بنت ملك الروم وتلك بنت جبلة بن الايهم ، وكل واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها . فتحمس يزيد يريد ان يقبض على ابنة ملك غسان (تاريخ العرب لفليب حتى)

٣ ـ فالقسم الوحيد من شبه جزيرة ايبيريا (الاندلس) الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة

السامية القرطجنية من قبل • مثل ذلك ينطبق على صقلية ، وهي حقيقة على شيء من الاهمية ، فقد كان الخط الفاصل بين الاسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدينة الفينيقية والمدينة القوتية • ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضموا تحت لواء النصرانية اما عنوة او صلحا ، ولكنهم ظلوا متمسكين بشرائعهم ودينهم (تاريخ العرب لفليب حتي)

والاسلام نفسه قد أقر الرابطة بين ذوي القربى « ووصينا الانسان بوالديه •• وان جاهداك ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » • « وليس بادل على صوت الغريزة من حنين رسول الاسلام الى قبلة اجداده العرب » : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » •

وحتى الشيوعية اتخذت مبدأ المصير المشترك بين ذوي القربى • أفلم تقرر روسيا الكيان الطبيعي للامم التي تخضع لنظام السوفييت الاعلى •

ليست الامة امتدادا للاسرة من حيث الكيان الرحماني فحسب ، انها امتداد لها من حيث المهام أيضا • في الامة كما في الاسرة تشف العبارة بين الاخوان عن المعنى فتتجاوب النفوس بما يختلج فيها من مشاعر •

واذا النفوس تجاوبت فاض من تجاوبها الشعور ، وعندئذ تم ارتقاؤها على الفيض نحو أصول المكارم • وتدل كلمة « أخ » باشتقاقها من « آخ » عبارة عن التوجع الطبيعية ، على الشعور المشترك بين الاخوان ، وعلى ما يدعو اليه هذا الشعور من تعاون على رفع الحيف بعضهم عن بعض ، ان الاسرة ادعا لازكاء شعور الحنان

عند الام ، وشعور الانصاف والعدالة عند الاب ، وشعور التعاون عند الاخوة • وكذلك الامة ادعا لشد أعضاء المجتمع أزر بعضهم بعضا كاخوان في تراث مشترك ، من أجل تذليل الصعوبات ، ومن اجل الارتقاء الى المثل الأعلى ، وها نحن نقدم هنا بعضا من تجاربنا في هذا الشأن •

ذات يوم وانا طفل رأيت زنجية • وكان المنظر مخيفا الى حد أنه سبب لي الاغماء وبقيت ثلاثة أسابيع مريضا في حالة هذيان •

ولما كنت طالبا بباريس تعرفت على طالب صيني ، فبقيت ستة أشهر وذهني يمتنع عن حفظ اسمه • ولما سألني عن تقدير سنه فأخطأت بسبع وعشرين سنة •

هكذا كنت أنفر من الزنوج والصينيين بحكم الغريزة ، ولكن لما عدت من باريس الى انطاكية وأخذت أناضل مع بني قومي ضد الاستعمار تفجرت في نفسي ينابيع المحبة وارتقى ذهني على الموج الى المثل الأعلى ، بحيث تخطيت حدود الغريزة الى انسانية تتلألأ في عليائها تلألؤ الكواكب في مدارها فوق الغيم والضباب • ان سبيل المحبة هو أقرب السبل الى الفضيلة •

هذا ، وان الشخصية الانسانية يقوم نموها على اتصال الوجدان بالمؤسسات الاجتماعية كما يقوم نمو الجسد على الغذاء المقتبس قوتا من الطبيعة •

تقوم الهيئة الاجتماعية نحو اعضائها بأمرين : تكشف بمتطلباتها عما انطوت عليه نفوسهم من امكانيات ، وتوحي اليهم بمستلزماتها مثلها بذلك كمثل البيئة الطبيعية في تأثيرها على تحويل كوامن الحياة في البذور الى أشجار باسقة• واذا بدا بعض الاختلاف في النمو بين الشخصية والجسد ، هذا تم نموه انسياقا بمقتضى غرائز وميول معينة ، وتلك بتفسير صاحبها لرسوم الجو الانساني فتحويلها

الى معان ، فان الخيال هو وسيلة استجلاء الحدس المتضمنة في العرف والمؤسسات العامة ، يتطلب انشاؤه جهدا وعناية أي أنه يفتقر الى تعاون بين الفرد والجماعة .

ومن دواعي نمو الشخصية وازدهارها انسجام الميول المنطوية في بنية الفرد مع الاوضاع العامة . فاذا كان أعضاء الهيئة الاجتماعية منحدرين من ارومة مشتركة ، جاملين في بنيتهم ذات أمتهم كقوام شخصيتهم ، هم يصبون اليها وهي تتحقق بهم ازدهرت حياتهم بهذا التجاوب الرحماني بين قطبي شخصيتهم الصميم والمظهر (المؤسسات العامة) . والا فان تنافرت مقومات شخصيتهم بالهجانة او بتباين كيانهم مع ماهية الامة يبقون متطفلين على الجماعة ويصبحون منها كالطعم من الشجرة ، يعجلون بانهيار الصرح الانساني الذي ينهلون منه الثقافة ، ان من ينقطع عن امته يهبط عن مستوى انسانيته فيستحيل بهذا الهبوط الى مسخ ذي تكوين مصطنع .

يبقى الدخيل الذي تباينت منظومة حياته مع قوام المجتمع منحجب الصميم عن دواعي الثقافة بحيث تضمر فيه جذور العواطف الكريمة ، فقد تبدو على سلوكه من المرونة بحيث انه يوهم الأخرين بالذكاء ، والالمعية ، ولكن ذلك ليس الا مظهرا لانعتاق الميول الدنيئة من ولاية الميول الرفيعة . وتأييدا لوجهة النظر هذه نقدم بعض الامثلة من التاريخ المعاصر :

لما كانت فرانسا والمانيا تخضعان لنظام الاقطاع كانت كل منهما تنقسم بحكم هذا الى عوام وامراء . ولكن الامراء في كل من البلدين لم يقفوا من محنة الوطن نفس الموقف . عندما احتلت جيوش فرانسا بقيادة نابليون بونابرت برلين عقد امراء الالمان مؤتمرا لمعالجة الحالة الراهنة ولما سئل احد المؤتمرين من مواطنيه النبلاء : كيف كان لقردة اوروبا ، وهذا هو لقب الافرنسيين عند الالمان ، ان احتلوا

جرمانيا التي تمد ملوك القارة الاوروبية بالحرس ؟ • فأجاب على السؤال عضو آخر من المؤتمر فقال :

نحن معشر النبلاء قد أرهقنا الجمهور بقيود الاقطاع ، فلم نبق لهم من الحول للاشتراك في حماية الوطن • وما ان قيل هذا القول حتى قرر رجال الاقطاع التخلي عن ثلث أملاكهم للفلاحين بلا بدل • هذا فضلا عن أنهم تنازلوا عن امتيازاتهم في الاقطاع كان ذلك بغية ايصال الكادحين الى المستوى الذي يؤهلهم للقيام بواجباتهم في الدفاع عن كرامة الامة •

واما امراء فرانسا فقد وقفوا من محنة الوطن موقفا آخر فلما عقدت الجمعية العمومية جلستها في ٤ آب سنة ١٨٩٣ اثناء الثورة الكبرى ، وكان خطر الاحتلال الاجنبي يداهم حينذاك البلاد من كل الجهات ، ناقش ممثلو فرانسا امر درء الخطر • في هذا الجو الملتهب بالحماس تمكنت بعض النفوس الكريمة من اذكاء الأريحية والنخوة في الآخرين وحملهم على اقرار بيع امتيازاتهم الاقطاعية للدولة ، لعل هذا القرار يثير حماس طبقة الفلاحين في الدفاع عن الجمهورية • ولكن النبلاء اذا اذعنوا لهذا النداء في حالةمن الوجد، فانهم سرعان ما أظهروا الندم على مقرراتهم • حتى أنهم أثروا الالتحاق بجيوش الاعداء على التعاون مع العوام على دفع العدوان •

وكيف كل هذا التباين بالموقف ازاء محنة الوطن بين امراء كل من المانيا وفرانسا ؟ ما دام الامراء في كلتي الدولتين من نفس الجنس أي الجرمن ؟

ان السبب في اختلاف الامراء في الموقف هنا وهناك يرجع الى ان الذين ظلوا في المانيا ظلوا في بيئتهم الطبيعية بين اخوانهم حيث كانت نفوسهم تتجاوب بين ذوي قرباهم تجاوبا يفيض بـه شعور المودة فيرتقي الجميع على موجها نحو المثل الاعلى • بينماكان الامراء

في فرانسا يترعرعون في بيئة اجنبية سلبوا سكانها السلطان ومرافق الحياة ، واخذوا يتطفلون على عشـــائرهم حتى انحسرت فيهـــم الميول الكريمة .

ومن قبل ، حين حاولت جان دارك النهوض ببني قومها فتشق لهم الطريق نحو حياة جديدة ، تألب الملك والامراء مع الانكليز ، الذين كانوا يحتلون فرانسا اذ ذاك ، على الامة وعلى قديستها . أفلم يقف هؤلاء الدخلاء من الالمان ضد احفاد الغاليين سكان البلاد ؟ رغم أنهم مكثوا بين ظهرانيهم عصورا مديدة .

وفي روسيا ، ألم يقف رجال الاقطاع موقفا معاديا من أمـــاني الجمهور الذي تطفلوا عليه كدخلاء ؟ حتى لقوا مصيرهم المحتوم . في حين كان امراء اليابان يقفون من أبناء جلدتهم ، الطبقة الكادحة ، الموقف الذي كانت تقتضيه المصلحة العامة .

ونحن أيضا قد عانينا ونعاني اليوم تجربة مماثلة . كان وجهاء البلاد يزحفون الى دوائر المستشـــارين في عهد الانتـــداب . كانوا يتسابقون في اعلان الولاء للاجنبي المحتل ويشتركون معه في المكيدة على الجمهور الذي منه يستمدون قوت الحياة . ولكن هل خفي على المعتدي الغاصب نذالة أعوانه ؟ الم تدرأ فرنسا عنها حقارة أعمال مستشاريها باتخاذها من الخونة أقنعة لسياستها في ارهاق البلاد ؟ ان دولة الانتداب اذ كانت تستنفد ثروة البلاد كانت تجعل المتزعمين معطية لكل مزلة ، واذا كانت تمدهم ببعض المرافق كانت تجعلهم كالاشجار التي اجتثت جذورها فلم يبق لها من وسيلة ، للمحافظة على بعض الرمق ، الا الرطوبة التي تتلقاها عن طريق الورق . بل كانت تجعل مثلهم كمثل كلاب الصيد التي تلحس دمها المتفجر من قوائمها وأهمة هي انهـــا تقتـــات من الفريسة اذ ذاك كانت الاسر الدخيلة علينا تتظاهر بالانقسام في الرأي فيما بينها :

كان فريق يتحدى شعور الجمهور بموالاته للاجنبي مستندا الى حرابه في التحدي ، وكان فريق آخر يتقنع بالوطنية فيثير ضجة مصطنعة يلهي بها الجمهور عن رؤية المشاكل العامة . هكذا كانت ولم تزل المعارضة وسيلة لوقاية السياسة الاجنبية .

وكيف كان احفاد العثمانيين يسلكون هذا المسلك من الانتداب بينما كان ابناء عمومتهم الذين هم في الاناضول يبذلون دماءهم في الذود عن حياض الوطن أثناء حربهم ضد اليونان ؟ ان الاسباب متماثلة هنا وهناك . وقد عبر المتنبي شاعر العرب عن هذه الفكرة اذ قال :

انما الناس بالملوك ولا تفلح عرب ملوكها عجم

الامة عقيدة

مثل ظهور الأمة على مسرح التاريخ كمثل ظهور الالهام على مسرح الوجدان ، أو كمثل ظهور النوع الحيواني ذي الطابع البدئ على مسرح الطبيعة ، وكما ان الالهام ينجم (١) عن الملأ الاعلى كمعنى لجملة رموز مرتسمة صورا في الدماغ ، وكما أن النوع يبدر في الكون كنظام خصائص معين ، يبدر كاستجابة يجيب بها الحياة على انقلاب في ظروف البيئة ، فكذلك الأمة عقيدة انعقدت عليها النفوس كاستجابة على مؤثرات طبيعية اجتماعية مشتركة • انما الامة تجربة رحمانية مثالية • تقاس أصالتها على عمق التجربة وبلاغة الاستجابة •

وهنا نعود مرة اخرى الى الافصاح عما نعني بكلمتي « رحماني ومثالي » ، قبل ان نخوض موضوع بحثنا :

لتجربة الانسان في الوجود مظهران : مظهر (فيزيائي)وآخر نفساني ، ينزع المظهر الاول الى التشتت في المكان ، ويصبو الثاني الى وحدانية • تبدو كمعنى منبعث من صميم الوجدان • ان التجربة وان تبدأ بالتباس بين الحسن والمحسوس فيها ، الا انسرعان مايكشف تطورها ، بتباين وجهتيها هاتين ، عن الوجدان والطبيعة •

---

(١) « فكان الصور المرتسمة في الدماغ ، تبرعه قواعدها العادات نزعة متقاربة، تستدرج الآيات الى الوجدان تستدرجها على ضوء الذكاء الحاصل من التوافق بين الصورة والمعنى » • من رسالة الفن للمؤلف •

هكذا تنكشف الطبيعة للعقل كنظام معقول ظاهره الحس وقوامه مناسبات رياضية معينة . أليس الحس تفسيرا ذا طابع بدئي للكم (الاهتزازات) اولا تبدو القوانين الطبيعية أيضا معادلات جبرية ؟ بل هكذا تنكشف تجربة الانسان في تطورها نحو المكان عن نظام رياضي تلبس مقوماته الوحدات (الاعداد) بالفضاء .

واذا كانت التجربة تتطور من المحسوس الى صورة مستفاضة في المكان طبيعة قائمة بذاتها ، فانها تتطور ايضا باتجاه مصدر وجود الاحساسات التي هو الوجدان . وكلمة « وجدان » نفسها تشير بصفتها اللغوية الى معنى الشعور الذي يحصل من المساهمة ، من مشاركة الحالات النفسانية وحدة ادراك . في هذا الاتجاه من تطور التجربة يتميز أمران : مفاهيم وآيات واما المفاهيم فهي مبدئيا رموز تدل على الاشياء من وجهة نظر معينة كدلالة الطاولة على وظيفتها ـ مثلا ـ بقطع النظر عن شكل ومادة الطاولات التي تقع تحت هذا المفهوم . والطاولة من حيث الفحوى تنتهي ، لدى تحليلها الى عناصرها ، الى ذرات فالى جواهر فالى شحنات كهربائية، أي تنتهي بأن يلتبس كيانها بالفضاء .

واما الايات فهي معان أصيلة تنبعث من الملأ الاعلى . فان تبدأ الاية بتلازم بين الشكل والوظيفة كما هي الحال في الاحياء وفي الاعضاء المكونة للاحياء ، فانها تتعدى من حيث هي منبعثة حد التلازم بين الشكل والوظيفة ، كمفهوم الحق مثلا ، واذا وضعت مفاهيم للايات كمفهوم الحق والحقوق ، ومفهوم الفضيلة والفضائل ، ومفهوم الواجب والواجبات ، فان الوضع على سبيل المجاز وفقا لقدرة العقل على تعميم المعنى على أمور مختلفة .

هاك مثالا عما نعني بالاختلاف بين المفهوم والآية :

يخيل لأول وهلة ان القصيدة تتألف من كلمات تقوم على اهتزازات في المكان وعلى معان متعارف عليها بين الناس • غير انها ، في الحقيقة ، تجربة وجدانية استعان صاحبها الشاعر على استجلائها وعلى نقلها حية للآخرين ، استعان بمعاني الكلمات كركائز وبالايقاع الصوتي لسياق العبارة كموج يرتفع على مده‌ذهن الهاوي الى‌الالهام، ان الهاوي اذا الم بالمعاني المستفاضة من تجربة الفنان انبعث من صميمه معنى التجربة الرحمانية المثلى •

ان العبارة تحمل رواء المعنى كتجليات وحسب • وأين للتجليات أن تستنفذ حقيقتها ؟ ذلك ما يوحي بتقصير العبارة عن معناها • وذلك ما يجعل اتجاهي تطور التجربة متباينين : الفضاء والملأ الاعلى (الملئ تماما) •

ونحن اذ نصطلح على كلمة « رحماني » للتعبير التجربة الانسانية نشير بهذا الاصطلاح الى رمز الصلة بين « أنا » و « الانام » الذي هو الرحم مصدر اشتقاق الكلمة ، والصورة الحسية لها • ان الام وان انفصل ابنها عنها بالولادة فأصبح موضوع حواسها كشيء من الاشياء ، الا انها اذا ما تمثلته في ذهنها اختجلت نفسها بما انطوت عليه صورته المتمثلة وقامت نحوه بحسب المعنى من المنبعث من صميمها ، المعنى الذي حصل من اتصال كيانهما اتصالا رحمانيا •

وبناء على ذلك فان التجربة الرحمانية معرفة في الانام ينبعث معناها من صميم « انا » انبعاث الهام الفنان من صميم الهاوي لدى فهمه القصيدة ، أو انبعاث مشاعر الولد من صميم امه لدى تعاطفها وإياه ، وان كان كل من الهاوي والام أدرك الانام بالحواس ، الاول ألم بشتات القصيدة ، والثانية تمثلت في خيالها ثمرة فوآدها •

ونحن نستخلص مما تقدم ان التجربة الرحمانيـة تكشف عن مبدأ الارتقاء نحو كنـه الوجود وعن مبدأ الزام الكائنات بعضهم ببعض كالزام الأم بابنها مثلا • وكلمة « واجب » باشتقاقها من «وج» ترمي الى معنى الانبثاق هذا ، والى مبدأ الالزام هذا ترجع النزعة الى الاصلاح نزعة مشتركة عن أعضاء المجتمع • وعلى قدر ما يكون الواقع منحرفا عن الحقيقة وتكون النفوس ذات صلة رحمانية مع كيان الجماعة على قدر ما يظهر الميل الى الاصلاح كقدر محتم مـن صميم الكيان •

واما مانعني هنا بالمثالي فهو ان المعنى اذا ما بدر من الملأ الاعلى يبدر كاملا وكلمتا « بداهة وبديع » توحيان باصلهما اللغوي الشبه بين بزوغ الحالة من خلال الحالات التي تتجاذب سطح الوجدان وبين الماء الذي يفجر قشرة الارض فيخرج على الضوء ينبوعا ذا رونق ، وتميزا للمعنى الاصيل ذي الطابع البدىء عن المعنى المصطلح عليـه في المفاهيم اتخذنا كلمة « اية » التي حصل تكوينها من صوت « ايه » المتضمن معنى الكمال • وكلمة « مثالي » تلتقي مع الحدس العربي في علاقة الواقع بالحقيقة • ان كلمة حقيقة مشتقة من الحق وصورة الحق الحسية هو حق (العظم) اي جرنه • وكما ان العظم يبعث القلق في نفس صاحبه اذا خرج عن حقه ، فكذلك المجتمع يشعر ابنائه بالقلق اذا تخلف واقعه عن حقيقته •

هاك بعض الحالات التي تكشف عن البنيان الرحماني المثالي المشترك

« ان تمثيل الفرد هذا لما يتمخض عنه الجمهور يظهـر في الاحوال المألوفة عندما يقال : انه سبقني الى الفكرة ، والفكرة كانت تحت لسـاني ، ويظهر أيضـا في انتشار الازياء وفي شيوع الاراء كموجة في فترة معينة من الزمن • ويبلغ مداه من الظهور في النبوة

حيث تسبر اغوار الحياة ويكشف عن الحقائق الخالدة فتحل على ضوء ذلك المسائل المستعصية » .

« واذا قيل : ان العنب يسوّد لرؤية بعضه بعضا ، فانما القول يعني ان النضج يأتي من الداخل وليست البادرة الا بشارة تبشر بقرب الموسم . وفضلا عن ذلك فان للبادرة في الشؤون الانسانية شأنا آخر وهو انها تساعد على انبعاث المعنى من النفوس ، المتعثرة في ولادته . وبذلك يصبح صاحب البشارة مبدعا وقدوة . واذا بدا التجانس في المجتمع والانسجام بين المؤسسات العامة في الامةالواحدة، فان التجانس والانسجام ليسا الا مظهرين للمعنى المنبثق من أعماق الوجدان . وان العبارة المرتسمة على محيا الاخوان انما هي سمة المعنى في التجربة الرحمانية المثلى .

هكذا تعكس المؤسسات الاجتماعية والاوضاع العامة ما انطوت عليه قرارة النفس من مثل أعلى .

وهكذا يدل اختيار المآثر والانسجام في اصطفائها على تكوين الذين اختاروها تكوينا مشتركا .

ولكن المجتمع يعكس بمؤسساته مقتضيات البيئة من وجهة نظر معينة ، بل يعبر بها عن صبوة الامة الى المثل الاعلى وما تستلزم هذه الصبوة من جهد وعناية ، مما يجعل الامم تتفاوت في الصور البيانية فضلا عن تفاوتها في سبرهم اغوار الوجود.ان الامة تتحقق في المجتمع كمثل أعلى تراءى من خلال الطبيعة بما يعترى ذلك من أمور عرضية كما تحدد طبيعة النوع بما يحصل من تفاعل الحياة والبيئة . هكذا يتجلى قوام الامة بمنظومة من القيم منها ما يقوم على كيان الافراد والمجتمع ومنها ما يتخطى بصبوته حدود المصلحة معبرا بزهوه عن ماهية الامة ذاتها .

وأما ظهور الامة على مسرح التاريخ كعقيدة فيتم على الصورة التالية :

ان الصلة بين النفس والمرحلة التاريخية على مثال الصلة بين الجسد والبيئة الطبيعية . الجسد يعبر بمدى نمو عدانه عن التجاوب بينه وبين الطبيعة ، ويدل بطبيعة وظائفه على وجهة التجاوب ، والنفس تكشف عن درجة عمقها بمدى تجاوب قطبيها : الصورة والمعنى ، وتنم شخصية صاحبها عن علاقة بينها وبين المرحلة التاريخية .

تقوم صلة الناس بالمرحلة التاريخية على استقطابهم النزعات المتبلورة رموزا في البيئة استقطابا تتحول به الرموز الى حدس ميزة ، وفي ما نجم عن الحدس في الوجدان بدى كمعنى ذي مصور ، فمن حيث هو معنى يصبح مفهوما ملخصا لما تتمخض عنه نفوس الجماعة ، ومن حيث هو مصور يزداد به العدان نموا ، بتحوله الى نظام امدة آخذ بالدقة .

وهكذا يكتسب تراث الجماعة بالتجربة الرحمانية تكونا دقيقا في المفاهيم العامة وميلا فطريا عند احفاد صاحب التجربة . هكذا تتجاوب في الامة الاصيلة الميول المنطوية عليها النفوس مع المؤسسات المشيدة على استجلاء الميول كبصائر .

ونحن نستخلص مما تقدم ان الامة الهام ذو نظام ، اصولها في الملأ الاعلى وتجلياتها تتبلور في سجايا ابنائها وفي مؤسساتها العامة. والامم يختلف بعضها عن بعض في أغوار تجاربها الرحمانية وفي نبرة الايقاع في نظام قيمها . وأما الاغوار فتجلى في نفوس القادة كعقائد،(١) وأما نبرة الايقاع في نظام قيمها فترتسم على محيى ابنائها . ان مثل الامة كمثل القصيدة ، هذه تتأرجح بين الالهام والالفاظ ، بين المعنى المستفاض من تجربة الفنان كالهام وبين المعاني المتعارف عليها في الالفاظ

التي منها ينسج الفنان تحفته الفنية ، وتلك يترد كيانها بين العقيـــدة والعرف ، بين الصبوة المشتركة الى المثل الاعلى وبين تقاليد الجماعـة

واذا كانت الامم تلتقي في القاعدة حيث تمس الحياة مأخـــذ قوتها الطبيعة (النظام الاقتصادي ـ كارل ماركس) واذا كانت تلتقى في الذروة (١) كالتقاء المسيح وافلاطون في تأملاتهما مثلا ، فانهـــا تختلف في نظام كيانها وفي اصطفائها مآثر ابنائها ، فمنها من يؤثر السيطرة على الطبيعة ، ومنها من يبقى رائده الملاء الاعلى ، واخرى تتعثر في سيرها نحو الغاية .

الامة تجربة رحمانية مثلى

في تميز نوع حيواني من نوع آخر يجب أن يؤخذ في نظر الاعتبار مبدأن : مبدأ ملائمة الحياة للبيئة الطبيعية ، ومبدأ عمق الحياة نفسها • فالمبدأ الاول من مكتشفات الحضارة الحديثة ، وقد أصبح من مقومات الفكر فيها • يرجع الفضل في تنبيه الذهن اليه وتوجيه آراء العلماء نحوه الى داروين أحد النابغين المعاصرين • وقوام هـذا المبدأ هو ان الحياة تجيب بنشر امكانياتها على الحوافز من الخارج اجابة تصبح فيها الامكانية المنتشرة عضوا ووظيفة ، فمن حيث هي متبلورة كعضو تشير الى المساومة مع البيئة ، ومن حيث هي وظيفـة تدل على عبقرية تكيف بما يعود اليها بالفائدة ، فائدة تحقيق ذاتها • وهكـذا اختلفت يد الانســـان عن مخلب العصـفور ، وعن خف الجمل ••• الخ بحسب اختلاف وجهات نظر الحياة عند كل من الانواع •

ولكن الكائن الحي ككل انظومـة وحـدة بالرغم من تنوع المظاهر في المكان وتخلفها مبضا عن بعض في الزمان • في هذه الوحدة تتلازم العبارة مع المعنى ، والكل منسجم في اداء المهمة ، مما يجعل الامكانية المتبلورة ذات صدى في نظام الكائن الحي العام • ومن هنا الانسجام بين الاجهزة كجهاز الهضم والاجهزة الاخرى • ومن هنا التباين بين ما يبنى بالعادة وبين ما ينبثق انبثاقا ، بين بنيان مصطنع آيل للانهدام وبين بنيان تنتقل تجربته الرحمانية بالوراثة من الآباء الى الابناء •

واما المبدأ الآخر الذي هو مبدأ عمق الحياة ، فلم يقع تحت الملاحظة حتى الان ، مع ان نظرة خاطفة على الانواع في الطبيعة وعلى أمر ظهورها خلال الادوار (الجيولوجية) تكشف لنا عن الاختلاف بينها من حيث مدى اتصال كل منها بالطبيعة (تنوع الحواس) ، ومن حيث مجال كل منها في الطبيعة (تنوع الحاجات وما يقابلها من تنوع الميول) . مبدأ العمق هذا كنت عبرت عنه بالعدان . والعدان مصطلح جاري الاستعمال في الزراعة . وهو يعني المدة التي يتطلبها الحوض من أجل ان يمتلىء ، منذ أن بدأ الماء ينسكب فيه . هذا ، وانه اي العدان مشتق من عد بمعنى انه يتضمن العدد . والى ذلك ان صيغة « عدان » على مثال صيغة « وجدان » المعبر عنها بـ « ان » التي هي عبارة المساهمة ،الاشتراك. ونحن نرى ان الحياة في كل كائن حي تبدأ بالرشيم وتستكمل شروط نموها بالشيخوخة ، وان مدة النمو خلوا من التكرار يتفاوت مداها بتفاوت الانواع مرتبة في سلسلة الاحياء ، فهي آنية فيالابتدائي منها ، وطويلة الامد في الانسان ، اذ يبلغ نمو الجملة العصبية عنده الخمسين سنة ، وان العدان وهو وحدانية المدة الحية التي تعين مداه بالعمر ، بتفتحه عن أمده آخذة بالدقة أكثر فأكثر . مثل الامدة les rythmes من وحدة العدان الحة كمثل الجرس barmoniqu في التعبير عن غنى تجربة الفنان .

وذلك ما يدعو الى اتخاذ الوحدة الحية على مثال الانظومة : وحدة في الكثرة ، وكثرة في الوحدة ، فمن حيث الصميم هي وحدانية ، ومن حيث المظهر تتجلى عن تلونات مختلفة . وهي بهذا الاندراج التجزئة الى ما ليس له نهاية ، تبعا لاطارها المكان . في حين ان الوحدة الحية تتخطى الظرف محل التجربة ، بمبدأها (معناها) . وكلمة « عدان » وهي الكلمة التي اخترناها للافصاح

عن حدسنا في ما هية الحية تعبر بنزعة عناصرها الاعداد الى وحدة الحدة المعبر عنها بالصيغة « ان » . ولما كانت الحياة وحدة يتلازم فيها المعنى والعبارة ، فان كلا من امكانياتها المتجلية تحدث تلونا في العبارة . ومن هنا تطور المفاهيم نحو الوضوح في كل ثقافة اخذة بالنمو ، والتلون المستحدث يرتسم ظلله عددا على المكان . وهكذا يتفرع عن الوحدة الحية التي هي العدان امدة اخذة بالدقة . وهكذا تتحول التجربة الرحمانية المقتبسة من قبل الآباء والاجداد الى سجية موروثة في بنية الاولاد والاحفاد .

وكلمة « عمر » تشير باشتقاقها من العمران الى المدة المقتضية من أجل تحقيق مدى العمق الذي يسبره النوع في أغوار الوجود . مدى تدل شدة انطلاقه على غناه .

اذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرامها الاجسام .

وبعد ذلك فليس من عجب ان يبدو الكائن الحي في نموه كالنابض وان يتضمن عمق تجربة الاجداد وشكلها معا .

ونحن نستخلص مما تقدم النتيجة التالية : ان عمق التجربة الرحمانية لا يتناسب مع العمر بمعنى العمران وحسب ، انه يتناسب أيضا مع شدة الميل الى التجلي والانكشاف أيضا . وبتعبير اخر ان رفعة الامة تقاس بعمق تجارب ابنائها الرحمانية ، بمدى سبرهم أغوار الوجود . وكما ان الدوحة تدل على ارتفاعها بفسحة ظلها ، فكذلك الامة تدل على عمق تجربتها بمدار شقفها الذي تلقيه على الاقوام ، بل بما تبذل من جهد في هدايتهم سواء السبيل .

ويدل على عمق التجربة الرحمانية صدق الحدس المتضمنة في الكلمات واصالة المؤسسات العامة التي تقوم على استجلاء الحدس واصابة الاساطير وفيها تتلخص التجربة بحلة شعرية .

واما مايدل على تفاوت الامم في مضمار الحضارة فهو تفاوتها شأنا في مجرى حوادث العالم . وهل تستوي امة تقتصر فيها العواطف على حدود الغريزة مع امة ديدنها تنظيم العلاقات بين الاقوام على ضوء تجربتها الانسانية ؟ واذا جاز لنا تصنيف الامم بحسب نظام قيمها وكان طابع النظام يتراوح بين الرحمة والرسالة نقول ان الامة التي تقيم كيانها على مبدأ الرحمة يقف تطورها عند حدود الجماعة المنغلقة الابتدائية اذ انها تلتم على نفسها فتبقى في ظلمة ، وان الامة التي تقيم كيانها على مبدأ العدالة تأخذ بابنائها نحو انسانية متكاملة ، وان الامة التي ينبغ فيها انبياء (مصلحون) يغترفون من الملأ الاعلى الحقائق ، تقشع ما التبس بحقيقة العدالة الامور العرضية الشكلية . هذا فضلا عن انها تقوم بتنظيم العلاقات بين الامم على ضوء الانسانية المستحدثة في رسالة المصطفين من ابنائها ، تنظيما يصبح فيه العالم كما تصبح الارض الطامسة معالمها بعد اندفاع بركاني تحول به سطح الساجي الى وجه ذي معالم .

ونرجع الان الى البحث في المزايا التي تجعل الامم يتميز بعضها عن بعض ، ولتكن بداية الحديث اللغة . فمن هذه الناحية يمتاز كلامنا عن غيره بصفات عديدة منها انه أصيل ذو جذور في الاصوات الطبيعية ، فكلمة « خارق العادة » مثلا ترجع بالتسلسل الى فعل « خرق » ومنه الى صوت خر خريرا الذي هو صوت جريان الماء ، وكلمة « فقيه » ترجع الى فقه فالى فق الماء ففقق اي الى الصوت الذي يحدثه الماء في حالة الغليان ، والصورة الحسية ل « فقه » هي تفتح الفقاقيع من الداخل ، وكلمة « معنى » ترجع بالاشتقاق الى فعل « عن » ومنه الى فعل « عن عننا » ومن هذا الى « ان » الذي هو عبارة الهيجان ، وكلمة « اخوة » ترجع الى صوت « آخ » الذي هو عبارة التوجع وكلمة الباتر « ترجع الى بتر »

ومنه الى فعل « بت » وهذا صوت يحصل في الفم من تقاطع بين اللسان والنطع ، وكلمة « قدرة » ترجع الى فعل « قدر » ومنه الى فعل « قد » الذي يحصل في الفم فيوحي معنى القطع •

وهكذا ترجع الكلمات العربية الى أحد المصادر الصوتية التالية : عبارات الهيجان « آن ، آخ » والى اصوات مستحدثة من الفم صداها هو معناه : « بت ، و ، قد » ، والى أصوات في الطبيعة يتحدد معناها باقترانه بحادث طبيعي آخر : فق ، خر •• » الخ ••

تنتج عن اصالة الكلمة نتائج هامة منها علاقة الصوت بالمعنى علاقة فطرية • هذه العلاقة تظهر خاصة في الكلمات التي ترجع الى عبارات الهيجان والتي تحصل في الفم ، حيث يكون المعنى اما روح اللفظة ، واما صداها في الوجدان • فمن هنا أتت قدرة اللسان العربي على البيان ، على مثال العزف (الموسيقي) في حفز الهمم •

هناك نتيجة اخرى تنتج عن أصالة اللسان العربي وهي اقتران على وضوح المعنى ، وعلى تعريف المفاهيم المجردة بصورة حسية ، يتقى بها الذهن كل تردد وشبهة • يظهر الاقتران خاصة بين يتقى بها الذهن كل تردد وشبهة • يظهر الاقتران خاصة بين الصوت والخيال في الكلمة التي ترجع بالاشتقاق الى مصادر في الطبيعة • هنا يبقى الشيء الذي هو سبب حدوث الصوت مضفيا تلوناته على الصوت نفسه ، كما يبدو تلون تأثير الماء في مجراه خربا، خروجا ، خرقا ••• كما يبدو ذلك في الكلمات التي ترجع بالنشأة الى خر الماء خريرا •

هكذا استعان الذهن بوضوح الرؤية وتلونها على ايجاد كلمات متنوعة متمايزة • وهكذا ظل الخيال المرئي رادعا للذهن عن الشطط في وضع الكلمات •

ولما كان الخيال المرئي مرافقا للصوت فقد أصبحت الاسماء الموضوعة للمحسوسات تعريفا اوليا للاسماء الموضوعة للمعقولات ، كتعريف الذكاء ب « ذكاء ـ الشمس » وكتعريف « العدالة » ب « عدلى الفرس » او ب « الاعتدال في الجسد » ، وكتعريف النبوة بالطريق الواضح .. كلها تعاريف اشتركت العناية مع الارادة في وضعها.وهي تدل على نموالحياة الانسانية بتجاوب قطبيها المحسوس والمعقول ، الصورة والمعنى . حتى اذا ما استجلى النابغ الحدس المتضمنة في الكلمات واستقطبها بخياله متقاربة جاءت المؤسسات العامة مصداقا لمشيئة العناية .

ونحن نحاول هنا ان نفصح عن التجربة الرحمانية المثلى للعرب في كنه الوجود ، عن تجربة كانت محور تأملاتهم ورسالة دأبوا على تحقيقها الا اننا سنقتصر بمحاولتنا الى استقطاب الكلمات الا بلغ في التعبير عن تجليات تلك التجربة . وبذلك نكون قد اوضحنا رؤيا العرب في الكائنات .

فلما كانت حالات الانفعال دليلا على النجاح او الفشل في الحياة نبدأ بتعيين المعنى المنطوي في الكلمات التي نعبر عنها :

هناك اتجاهان للانفعالات : اتجاه ايجابي وآخر سلبي ، فاما الاول فيبدو من الصميم مشيرا الى انكشاف الحياة وتحققها وفق طبيعتها ، واما الاخر فيدل على عجز الحياة وانتكاسها . واليك بعض المقاطع التي تتعلق ببحثنا نقتبسها من كتابنا العبقرية العربية في لسانها .

« ان كلمة » لذة « مشتقة من « لذ »: لذ الشيء : صار شهيا فهو لذيذ . ولذا شيء فهو لذيذ . ولذا شيء : وجده لذيذا .

« فهذه الكلمة ، كما يبدو ، تفيد الحالة التي تحصل عن الملاءمة بين النزعة وغايتها ، وهي ذات اتجاهين : اتجاه النزعة .. واتجاه الغاية .

« فاللذة في الحدس العربي ، اذن ، هي النزعة في الوجدان باتجاه غايتها : فاذا تقدمت النزعة على غايتها فانها تبدو، في الوجدان، محددة بصورة غايتها ، حاملة هالتها (الشهية) واذا ما تحققت هذه الصورة بالشيء ، تحولت الشهية حينئذ الى اللذة » وكلمة « ألم » تفيد بنشأتها « لم » ان مدلولها يحصل عن تقلص فعالية الحياة بتأثير خارجي ، سواء عن بنيان البدن او البيئة .

« عندما تتفتح الحياة ، ينموها في الفرد ، يبدر منها الفرح مشيرا بتكيفه الى اتجاه تعاليها ... لذلك فقد اختار الذهن العربي كلمة « فر فرفر » الصورة الحسية الحاصلة عن طيران العصفور مصدرا لاشتقاق كلمة « فرح » لما للحالة التي تعبر عنها من شبه مع ارتقاء العصفور مصدرا لاشتقاق كلمة « فرح » لما للحالة التي تعبر عنها من شبه ارتقاء العصفور في الافاق المتعالية (العبارة العامية طار من فرحه) .

« كما ان هذا الذهن قد عبر عن الحالة المقابلة للفرح بكلمة « حزن » من « حز » : قطع بحيث ان النفس تضمر فيحصل فيها ما يعبر عنه بالعامية (انقطع قلبي من الحزن) .

« اذا كانت اللذة محددة بعلاقة النزعة بالشيء « فالسعادة » تشمل الحياة بجملتها ويقابلها كلمة « التعس ـ التعاسة » المشتقة من « تع » ، « تعتع » الصورة الصوتية البدائية التي تفيد العجز عن الافصاح .. فالتعاسة ، اذن ، انما هي في انهيار الشخصية الحاصل عن عجزها عن استجمام ذاتها فتحقيقها .

بينما كلمة « السعادة » (سعى ، ساعد ساعي) تعني ، على العكس ، تفتح الشخصية بكاملها .

يؤخذ من جملة الكلمات المعبرة عن بعض الحالات المتعلقة بالشعور ان الحياة « مسرة وانها ، في الاصل ، متفائلة ، أي قد

يعتريها ، في تحققها بعض المشاكل فتسبب لها الحالات المعاكسة على درجات متفاوتة • فاذا مست هذه المشاكل صميم الحياة تعس صاحبها الفرد ، واذا تناولت البدن حصل له وجمع وألم ، واذا حدد ت افق خيـاله صار ضيقا وحصرا ، واذا تعلقت بالظـروف المحققة لبنيتـه صار شقيا ••

ولكن اذا استكملت الحياة شروط تحققها في الفرد ، باخضاع القدر لمشيئته ، تحولت المسرة الى سعادة وفرح •

تجد النظرة الانبعاثية هذه في نشأة العواطف تشمل الاخلاق أيضا • فكلمتا « خير وشر » يلتقيان في المعنى مع الانفعالات ، الاولى مع الوجهة الايجابية والثانية مع الوجهة السالبة ، الاولى تفيد الفيض باشتقاقها من خار خيرا (خرير الماء) ، والثانية تعني الجفاف باشتقاقها من شر : شر الثوب : وضعه في الشمس ليجف • وكذلك كلمتا « فضيلة ورذيلة » يؤديان نفس المعنى ، الاولى معنى الفيض والثانية معنى الجدب الرذاذ • وكلمـة « واجب » هي أيضـا تعنى معنى الانبعاث ، بأصولها اللغوي " أج ، وج " • حتى ان وجهة النظـر المتقدمة لتتناول جذور الوجود ، اذ ان كلمتي « رحم »و « رحمان » يرجعان الى مصدر مشترك والرحم هو الصورة الحسية للرحمان • فكأن لسان حال الذهن العربي يقول،ان الكائنات على اتصال رحماني بمصـــدر الوجود ، مثلهم بذلك كمثل الجنين من امـه ، منـــه تقتبس النسغ والقوام • وانما الصراط المستقيم في هذه النظرة هو السبيل بين النفس وباريها ، بل أقصر السبل التي ينم بها الاتصال مع باريها •

واما الشيطان فهو رمز الشطط ، رمز الانحراف الحاصل من الاعراض عن مصدر الموجودات • ومن هذا الشطط تأتي اليبوسة والجفاف •

هناك مجموعة اخرى من الكلمات تتفق بالمعنى مع المجموعة الاولى وهي : وجود ، وجدان ، ضمير ، ذكاء ، ذكرى ، نسيان .. واما الوجود والوجدان فهما مصدران لفعل « وجد » . وفعل وجد يفيد النزعة في اتجاه غرضها : وجد ضالته : اهتدى اليها بعد التفتيش عنها . وبناء على ما تقدم فن النزعة اذا بلورت في الغرض فهي وجود ، واذا انكشفت لذاتها فهي وجدان . فكأن كنه الكائنات في الحدس العربي معنى ذو نزعة،وليس الوجود والوجدان الا مظهرين متباينين للمعنى ، والتباين هنا يعني ان احدهما يبين الأخر .

واما كلمة « ضمير » وهي l'inconscient في اللغات الاوروبية ، فتفيد معنى الضعف والهزال ، بحسب نشأتها اللغوية « ضمر » وكلمة «نسيان » فتتضمن ايضا معنى الضمور : نس الخبز : يبس ، النسيس : بقية الروح في الجسد . فكأن ما يعرض الذهن عنه يبقى في حالة هزيلة ، عاجزا عن الظهور في ساحة الشعور ، النسى : ما يتركه المرتحلون من رذال متاعهم . واذا نحن استعنا بالحدس المنطوية عليه كلمتا « ذكاء وذكاء » تبين لنا بوضوح مغزى كلمة « ضمير » فكأن الذكاء وهو اللمعة في النفس مماثل لصورته الحسية « ذكاء ـ الشمس » هذه توقظ بطلعتها الاحياء ، وذاك يبعث باشرافه الحالات النفسانية الراقدة في الضمير ، بعثا تتحول به الى ذكريات .

وكلمتا « ذكرى ، ذكاء » يرجعان الى ارومة مشتركة : ذك ، التي تعني الدلك بحيث تحدث الشرارة ذات اللمعة : ذكت النار : اشتد لهيبها .

وعندما نلقي نظرة على اللسان العربي في نموه تتكشف لنا الحياة من خلال آثارها كما تتكشف التحفة الفنية عن هوية مبدعها الفنان . في بادئ الامر تظهر القواعد التي تخضع لها الصور في

دعوته ابعضها لبعض الى ساحة الشعور كقواعد الاقتران والمشابهة والتضاد • ولدى التأمل في جملة الكلمات المشتقة من نفس الارومة يبدو الى جانب ميل الصور الى التآلف وفق المبادئ المتقدمة معنى يلقي طابعه على مجموعة المشتقات كما يلقي الالهام في القصيدة طابعه على انسجام عناصر القصيدة • واليك بعض الامثلة التي نكشف بها عن نمطي النمو المتقدمين :

نمط استجلاء الحدس بتجاوب وجهتيه : المعنى والصورة ، على مثال استجلاء الالهام بالالفاظ ، النمط الذي تعبر عنه كل من وجهاته احدى كلمات الاسرة المنطوية تحت الاروما ، ونمط الانتقال من الصورة الى صورة تبعا لمبادئ تداعي الافكار المألوفة • والنبد الان بالنمط الاخير :

الاجيج : الصوت الذي يحصل من اختلاف الكلام وخفيف المشي •• ، ماء أجاج : ماء مالح مر ، أجت النار : اضطرمت واشتد لهيبها • والان نتساءل كيف اجتمعت في اسرة واحدة كلمات متباعدة بالمعنى الى هذا الحد ؟ وهاك تفسيرنا :

الكلمة البدائية التي هي مصدر الاشتقاق هي صوت الاجيج الذي يحدثه ذكر الحمام حينما يحوم حول الانثى • في هذه الحالة ينتفش ريشه ويشتد حماوة جلده ، فمن خيال الريش المنتفش انتقل الذهن ، بالمشابهة الى موج البحر ، ومن موج البحر انتقل بالاقتران، الى ماء البحر المر المالح ، هذا ومن جهة ثانية انتقل من الحماوة ، بالمشابهة ، الى النار الاخذة حرارتها بالاشتداد • واسم حمام نفسه يدل بنشأته اللغوية على الحماوة الحرارة •

واليك مثالا آخر عن نفس النمط : قر اليوم : برد ، قرت الحية : صوتت ، قر في المكان : ثبت واستقر • وكيف اجتمعت كلمات متباعدة كهذه تحت اروما واحدة ؟ هناك دوية مستطيلة

اسمها القر ، تعيش في الماء وتحدث صوت « قر » ، ولما كانت الدويبة هذه تعيش في قاع الماء ، وفي أثناء الشتاء أصبح صوتها الذي منه اشتق اسمها مصدرا لاشتقاق تلك الكلمات . ومن هنا كان الاتجاه قد تفرع الى القرارة (القاع) والى البرد (القر) والى صوت قرأ .. الخ .

واما اتجاه المصمم الذي تبقى فيه المشتقات متضامنة بالمعنى كتضامن بين انغام الانشودة بوحدة الالهام ، فيظهر بوضوح في المثال الآتي :

« ان كلمة « ذكاء » من « ذك » وهي صورة صوتية مدادية ، مع اخواتها حك ، صك ، دك ... اتجاه يتضمن معنى الاحتكاك والدلك بحسب بيان الحرف « ك » والكلمات المعبرة عن بعض تجليات الحدس الحسية هي : ذكت النار : اشتد لهيبها ، اذكى النار : اوقدها ، الذكوة : ما يلقى على النار فتزكو به ، الذكاء : الجمرة المشتعلة ، ذكاء : اسم علم للشمس ، الذكاء : سرعة الفهم وحدته ..

فكأن الذهن العربي قد أدرك ، حدسا ، الشبه بين تحولات الوجدان من الابهام ، قبيل اليقظة ، الى الوضوح فالتأجج عند استكمال شروط هذه اليقظة وبين الشمس الساطع نورها والحاصلة من تكاثف السديم فكأن الانسان ، في الحدس العربي ، من الطبيعة على مثال البرعم من الشجرة ، يستمد منها المادة ، النسغ . ولكن اذا كان الانسان يقتبس عناصر كيانه قوتا من الطبيعة على مثال البرعم من الشجرة ، فان روحه نفحة من السماء يتعدى بها ، من حيث الانبثاق ،حدود عالم الحوادث وما يخضع له هذا العالم من قوانين جبرية . وأما الصورة وقد صيغة على مثال باريها فهي تصبو ، بحكم نشأتها ، الى استكمال شروط ماهيتها ، بحيث تصبح ذات تصرف

في شؤونها على مثال الاله ، ولو التزمت مسايرة الطبيعة مأخذ قوتها، الا ينطوي حدس العربي في الصورة على اتجاهي الصور والصيرورة معا ؟ وما الذي يؤلف بين الاتجاهين المتباينين للصورة اذا لم يكن المعنى ؟ فاذا تم تكوين صورة الانسان نتيجة مسايرة الحياة بمقتضيات البيئة ، وكان كل من اعضائه كاليد ، والاذن ، والانف ، والعين ، قد حصل مما اقتضته المعيشة في بيئة عناصرها الضوء والصوت والهواء، فذلك لان سمة عبقرية تساوم بينها وبين مأخذ قوتها مساومة تفصح بها عن ذاتها أبلغ فأبلغ فتحقق ذاتها أكمل فأكمل .

ولكنا نحد من القدرة الالهية لادراجنا الاله وايانا تحت مفهوم مشترك : الصورة . اللهم الا اذا اتخذنا الصورة بالمعنى المجازي الذي تضمنته الاية : وكل يوم هو في شأن ، اي بمعنى الابداع والحرية . ونحن اذا أتممنا الآية المتقدمة بآية أخرى : « ونفخنا منه من روحنا » ، أدركنا العلاقة بين الاله والانسان على مثال العلاقة بين الاله والقصيدة . ومع هذا يجب ان لا يفوتنا ان الالهام والقصيدة يقومان بنا بينما نقوم نحن بقطبي انكشافنا : الطبيعة والملأ الاعلى ، القطبين الذين يقومان بالعناية . ونحن نقترب من الامنية على قدر ما تحقق حكمة وجودنا التي هي الحرية ، حرية الاشراف من عل على مصيرنا ، وحرية ابداع قيم تكون بها مبتدعاتنا لحمة في نسيج الانسانية . والاية التالية تشير الى ما يجب أن يكون شعارنا في تحقيق حكمة وجودنا : « الله : حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » . واذا جاز لنا تفسير الاية التي تقدم ذكرها بما هو مصطلح عليه في المرحلة التاريخية الراهنة ، اذا جاز لنا ذلك قلنا : ان الاله شعور متأجج أبدا لا يخبوا ولا يثلم ، على خلاف ما نحن عليه ، اذ ان شعورنا يتموج بين الاوج والحضيض بين الابداع والتقليد . وذلك لاننا نقوم بالجسد المقتبسة عناصره من الطبيعة ، بحيث نخضع للنوم وفيه

يخبو الشعور ، ونخضع للعادة (السنة) وبها يثلم الشعور ، وذلك ما يوحي باننا نحقق حكمة وجودنا بنسبة ما نتصرف بوعي في شؤوننا .

واسطورة « حواء » التي هي جزء من اسطورة « آدم » ومتممة لها تكشف عن نهج الحياة في ارتقائها نحو عبقرية مبدعة . فاذا كان آدم ابو البشر يرمز الى ظهور الانسان كمعنى منبثق عن الملأ الاعلى فان حواء ترمز ، لصدورها عن ادام وباشتراكها معه في بناء النسل ، الى النمو بالتجاوب الرحماني بين المعنى وبين صورته المستفاضة .

« اذا كانت الحيـــاة قـــد افترقت بالابدان الى نفوس فهي قد سهلت بهذا الافتراق نموها بتجاوبها رحمانيا وبتفتحها عن بنيانها أعمق فأعمق وذلك بالاضافة الى تعاونها في اخضاع القدر لمشيئتها . من كتاب العبقرية العربية في لسانها للمؤلف .

« ولئن كانت الحياة قد تفرعت بالابدان الى أفراد متباعدين في المكان فقد اوجبت عليهم التلازم والتعاون اتماما لحكمة هذا الافتراق تلازما بين الإجداد والاحفاد ، وتعاونا بين « **الاخوان** » من نفس الكتاب .

وعندما نقابل بين اسطورة آدم التي تقول بان الانسان ابن السماء وبين اسطورة الآريين التي تقول بان الانسان ابن الارض ، تتبين لنا نبرة الايقاع في تطور كل من فرعي عرق الابيض . ونبرة الايقاع هذه عند العرب وعند من تفرع منهم من شعوب سامية هي اتخاذ الثقافة كعامل اولي في تكوين الانسان ، اي اتخاذ ما انبثق عن النفس من تجليات للحقيقة الانسانية هو العامل الاساسي في تعين مجرى حوادث تاريخ الانسان ، واما نبرة الايقاع في تطور الآريين فهي أن الاهمية الاولى في تكوين الانسانية للروابط التي تحصل من ضرورات البيئة . وتاريخ كل من الساميين والآريين شاهد على أن

النزعتين المتباينتين ، نزعة الساميين الى التآحد في وحدانية الثقافة ، ونزعة الآريين الى التشتت بحسب مقتضيات الطبيعة ، كانت كل منهما قد عينت احدى وجهتي تطور البشر . هكذا يشرف الاسلام من عل كرسالة على الامم ويوجهها نحو وحدة الثقافة ! « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » . « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ... فان تولوا فقولوا نشهد بأنا مسلمون » . « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

لقد اقيمت امبراطوريات تجمع امما مختلفة في نظام موحد ، كالتي أسسها كل من اليونان (اسكندر الكبير المكدوني) وروما في العهود القديمة،والانكليز والروس الشيوعيون في المرحلة التاريخية الراهنة ، ولكن اين لهذه الامبراطوريات روعة المجاهدين العرب المسلمين في صبوتهم الى الحق واستشهادهم من أجل احقاقه؟ليس لكلمة مبلغ ما تبلغه كلمة « شهيد » في التعبير عن تلك الروعة ! أي مشهد أروع من مشاهدة عالم الغيب عند اقتحام الموت في سبيل الحق ؟!

وعن اسطورة آدم ، التي تقول بنشأة الانسان السماوية ، نتجت اسطورة اخرى وهي الاسرة الانسانية : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبين مبشرين منذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلفت فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

واما العرب في الاسرة الانسانية فهم بمثابة ابن البكر في العائلة المالكة : « امة وسط » . بمعنى الاعتدال ، او القرب من الينبوع ، من الكمال الذي هو المثل الاعلى المتجلى في الرسالة حينا بعد حين

من عهد آدم حتى عهد محمد ، أول خلق الله وآخر الرسل ، شهداء على الناس وكان الرسول عليهم شهيدا .

وذلك ماجعل الرسالة والولاية متلازمين في تاريخ الامة العربية . وأية أمة غير العرب ظلت على تجربة الحياة المثلى ، التجربة التي تجلت مع ظهور آدم في الدنيا ؟ ان كلماتنا ومؤسساتنا تجليات لتلك التجربة ، الم تبدأ الكلمات العربية مع ظهور الانسانية ، مع ايجاد الحياة اللسان كاداة بيان لها ؟ اي منذ تحولت عبارة الهيجان للتوجع « آخ » الى كلمة « اخوة » . او لم تكن وجهتا الوجدان : المحسوس والمعقول تنموان بتجاوبهما منسجمين في لساننا ، بحيث أصبحت مظاهر حياتنا كالفقه والفنون والدين .. تقوم على استجلاء الحدس المتضمنة في كلامنا ، بل اصبحت شجرة سحرية جذورها في الملاء الاعلى وتجلياتها في الطبيعة . واذا أولى العرب عنايتهم بالاصطفاء في النسب فذلك لئلا تطغو نزوات الحياة على النفس فتحجبها بهذا الطغيان عن رؤية التجربة الرحمانية المثلى ، التي هي مصدر المعرفة والعمل .

واذا قال العرب لا يعلو المرأة من كان دونها متخذين بهذا القول الاصالة اساسا في الكفاءة ، فقد دلوا على ان العناية من الزواج هي استئناف الاصطفاء من أجل الوصول الى جيل أقرب فأقرب من الكمال . واذا هم تكنو بأحد الاجداد الاقربين ، فما ذلك منهم الا اعتداد بمن بلغت فيه الصفات الاصيلة الاوج في الاصطفاء .

قيل ان أهم حدث في تاريخ الانسان هو اقامة رابطة المصلحة والجوار مقم رابطة الرحم بين الاخوان ، كما ان أهم حدث في تطور العقل هو تحول اللفظة من صورة طبعية بيانية الى رمز .

في الواقع ان الارض وما ينجم عنها من مصالح يستجليان مفهوم العدالة وتساعدان على نمو الروابط بين الناس ، وتنوعها ،

وان الرمز يمد الذهن في انطلاقه نحو infinitismal بحيث يتيسر له ايجاد صيغ رياضية معادلة للحوادث في الطبيعة • ولكن التقدم هذا في الحصول على أسباب المدنية يكون على حساب التجاوب الرحماني بين الاقارب وما ينجم عن هذا التجاوب من وضوح في الحياة الانسانية • وهل لسبب آخر يرجع التردي عند الشعوب السامية ، عن تحول رابطة الرحم الى رابطة الجوار ، بحيث تفككت رابطة القبيلة وعن تحول رابطة الاشتقاق بين الكلمات وتحولها الى رمز يطفو على الرأي العام •

ملحق :

الا ان رقابة المعنى للملفظة وجعله اياها طوع مشيئته يستلزمان وعيا على مستوى عال ، وهل يبقى الوعي على هذا المستوى ولا سيما اذا ابتعدت الصورة البيانية عن الفطرة الاصيلة بالهجانة ؟ ليست اللهجة العامية الا نتيجة ارتخاء يعتري البيئة ، ذهنية كانت ام اجتماعية ؟: اما كيف انحرفت لغتنا من الفصحة الى العامية التي نستعملها الآن ، فذلك محصلة أسباب عديدة ، منها وأهمها ان الفئة المصطفاة ، كممثلة للثقافة العربية ، قد استشهدت أثناء الفتوحات ، واستشهدت أثناء الاضطرابات الداخلية من أجل تصحيح الخطأ في اجتهاد الحكام ، من قبل الجمهور الثائر ، وأثناء قمع الثورة من قبلهم ، ومنها أيضا اختلاط العرب بالاعاجم عن طريق الزواج وعن طريق الهجرة المتبادلة بين هؤلاء وهؤلاء على مقياس أوسع فأوسع حتى أصبح مثل العرب ، أصحاب الثقافة ، كمثل خلية نحل استولت المتطفلات على العسل بعاملاتها •

ومع ذلك فان الميل يضمر في السليم ضمور المرض وقت الصحة ، ويذر قرنه عندما تعجز الحياة عن السيطرة على ظروفها، مما يجعل الفصحى من العامية كالكياسة من الفلاية • فالاولى تتطلب

جهدا وعناية بحسب ما يقتضيه البقاء على الوضع الامثل ، اما الثانية فليست الا منحدرا توؤل اليه مقومات الشخصية لدى انهيارها في حالة العجز عن لم شعثها وتوجيهها نحو الكياسة التي تستلزمها الامنية : وكلمتا عامي واعمى تلتقيان في حدس مشترك هو العجزعن تميز التلونات .

ان ظهور العامية لم يكن وقفا على عهد الاسلام ، وانما اللغات السامية لهجات عربية استغرقت في عاميتها كل الاستغراق حتى ثبت الانحراف بالكتابة ، اما ما في هذه اللهجات من نظام على الرغم من أن كيانها يقوم على الميل ، فذلك لأن كل ظاهرة من ظواهر الحياة تنطوي على النظام سليمة كانت ام منحرفة ، فمتى تمثل الرمز في الذهن تحول الى صورة ، والصورة تبدو كنظام من وجهة نظر معينة شأن اللغة بذلك كشأن جميع مظاهر الحياة الاخرى .

حتى لقد يرجع التشاؤم عند الشعوب الساميـــة الى تخلف العامية عن الفصحى ، الواقع عن المثل الاعلى ، مدى يترآى فيه الماضي كعهد ذهبي من خلال الحاضر المزور . ولقد يرجع الى هذا الحدس التباين الشديد بين قطبي الحياة : الطبيعة والملأ الاعلى ، تباينا يتأرجح الذهن بين حديه : الرحمن والشيطان .

الا يدل انصهار الشعوب السامية في بوتقة العروبة انصهارا كليا على اشتراك هذه الشعوب مع العرب في ارومة واحدة ؟

سمات الامة العربية

تبدو الامة للمتأمل في مظاهرها العامة كمنظومة ، فهي من حيث حدود معالمها مغلقة ككل منظومة حتى ولو التبس فيها الأصيل بالدخيل عن طريق التقليد والاستعارة • وهي من حيث الصميم تتفتح ، لدى تمثلها في الذهن ، نحو المثل الاعلى ، شأنها شأن كل منظومة • ان كلا من مقومات الحياة العامة يتحول لدى الوعي من رمز الى معنى منبعث من الوجدان • حتى اذا ما اسقطبت المعاني متقاربة في الذهن اشتدت الصبوة الوجدان الى الآية التي هي حكمة وجود النظام •

وايضاحا لوجهة النظر المتقدمة نأخذ من بين ظواهر الحياة العامة ، ظاهرة نستند اليها • كاللغة والتشريع والديانة •• الخ •• في عرض موضوع بحثنا • ولكن اللغة هذه الظاهرة باعتبار أنها أكثر التصاقا بالامة وأبلغ تعبيرا عنها • ولا سيما ان المؤسسات العامة تقوم في غالب الاحيان على استجلاء الحدس المتضمنة في الكلام ، كما تقوم الحياة عامة على استجلاء ما ضمر في الأفراد من استعدادات •

من الامور المتعارف عليها بحكم البداهة ، ان اللغة تتألف من صور صوتية ككلمات ومن معان تنطوي عليها هذه الكلمات كحدس، وهي بالجملة كل منسجم ، تتميز بانسجامها الخاص عن اية لغة اخرى • وطابع اللغة البدئ يشمل الحروف والحركات ، وهو يظهر بجلاء أكثر في المفردات والقواعد • حتى اذا شردت احدى الكلمات من لغة الى اخرى ، فانها سرعان ما تخضع لنظام هذه اللغة

الصوتي بحيث يصعب فيما بعد تعيين هويتها من قبل أصحابها القدامى. وكمثل لهذا التحول العميق المماثل لتحول الاغذية الى الانسجة في البدن ، نورد بعض اسماء عربية الاصل كا (الصبية)و(المجدلية)، و (ياهو) ، الكلمات التي تحولت الى (اليزابيت) و (مادلين) و (جيهوفا) في اللغات الاوروبية . ولا يبقى التحول عند تلونات الاصوات ، بل يتناول المعاني أيضا ، وتاريخ الكلمات ، كالفاظ بل كمفاهيم ، شاهد على ذلك ، ولا سيما اذا كانت المفاهيم ذات علاقة باصول الحياة الانسانية حيث تضفي الايات رواءها على المظاهر فتجعل المعنى يحمل طابع الجو الفكري الخاص بالامة . والعقائد الاكثر دقة والمبادئ الابلغ بيانا تخضع لهذه القاعدة .

هكذا اختلف مدلول كلمة ديموقراطية من امة الى امة ، وهكذا اختلفت الامم في فهم الاسلام والمسيحية وفي تفسير أحكامهما ، كل منها يسلك طريق عبقريته الخاصة .

ان الحياة تظهر منظومة في الاحياء على تفاوت درجات أنواعها وعلى اختلاف مراتب مؤسساتها . ولا سيما اذا كانت المؤسسات العامة كالاداب والاخلاق والتشريع منظومات تعاون على تنسيدها النوابغ مع الجمهور بالاستناد الى استجلاء الحدس المتضمنة في الكلمات ، فجاءت كلا ، اجزاؤه متلازمة متتامة كما هي الحال في كيان امتنا . والامم بذلك على غرار الاحياء ، تقاس عبقريتها بعمق تجربتها الرحمانية ، باصالة مؤسساتها العامة وبشمول طابعها على الاشياء معا.

وتبيانا للفرق بين عبقرية امتنا وعبقرية الأمم الاخرى نرى من المفيد اقامة المقارنة بين المؤسسات العامة عندنا وعند غيرنا :

كلماتنا تبدأ بالاصوات الطبيعية . فمن صوت خرير الماء مثلا (خر خريرا) اشتقت الكلمات : خرب ، خرج ، خرق ، خرد ، خرز .. ، ومن صوت سقوط الماء متقطعا اشتقت الكلمات : تر ،

ثر ، در ، ذر ، ضر .. ، ومن صوتي (آخ وان) اللذين همـــا عبارتان طبيعيتان للهيجان اشتقت الكلمات : أخ واخوة ، وانا ، وانين، وعنين ، وحنين ... الخ . ومن صوتي (بت وقد) اللذين يحصلان في الفم من تقاطع اللسان بالنطع اشتقت الكلمات : بتر ، بتل ، قـــدر وتقدير ، قدم .. الخ .

ولدى التأمل في الامثلة المتقدمة يتبين ان العلاقـــة بين المعنى واللفظ تقوم على اقتران الصوت بالشيء ، كاقتران صوت الخرير بما يحدثه الماء من تأثير في مجراه : خربا او خروجا ... الخ .

واما اقتران الصوت بما تجيب النفس عليه من معنى كصوت الانين والمعنى المقابل له : الداخل او الصميم وكصوت : آخ ومعناه التوجع ، وكصوت غيم ومعناه الغيوبة ، كل بحسب مخرجه وما يلزم عنه من صدى في الوجدان .

وهذان الاتجاهان في نمو لساننا يؤديان مبدئيا الى مجموعتين من الكلمات . فأما المجموعة الاولى كخرب وخرج وخرم فيغلب عليها الطابع الكوني للاشياء . واما المجموعة الثانية ك (أنا ، وانت، وأن ، وعن ، ومعنى ، وعناية) فيغلب عليها الطابع الانساني ، وفقا لنشأتها . ولما كان النمو في اللغة يخضع مبدئيا لتجاوب بين الصورة الحسية والمفاهيم العقلية من جهة وبين الصور الحسية والآيات من جهة ثانية ، فقد ظل كيان لساننا ذا انسجام بين الصميم والمظهر ، على مثال الانسجام بين الاعضاء والوظائف في الحياة التي أوجدته كاداة بيان لها .

ولهذا فان الكلمة الدخيلة تبقى نابية في لغتنا فتثير الاجيـال عليها كما يثير الشوك انسجة الجسد لدفعه عنها .

وأية لغة من لغات العالم تقاس من هذه الوجهة بلساننا ؟ أهي اللغة التركية وفيها يتعدى الدخيل حدود التسعين في المئة ! أم هي

اللغتان الفرنسية والانكليزية وقد قام كيانهما على تبني الكلمات الدخيلة .

وتنتقل الآن الى ظاهرة اخرى من ظواهر حياتنا العامة ، وليكن مثالنا في هذه المرة الشريعة . ان قوانينا ترجع بالمبدأ الى آيات أصولها في السماء ، كما ترجع الى أصوات أصولها في الطبيعة . وكلتا الظاهرتين تتخطيان بجذورهما التاريخ الى ما هو فوق الزمن . واذا استعار حكامنا بعض القوانين تمشيا مع التطور على حد قولهم ، فانهم من الدخلاء على امتنا . ومع ذلك فقد ظلت هذه الاحكام دخيلة نابية عن ذوقنا بالعدالة .

أما ماشيد من صرح فقهي من قبل اعلام امتنا فيقوم على مبدأ الاشتقاق كما تقوم كلماتنا على نفس المبدأ : هذه تتخذ الاصوات الطبيعية مصدر الاشتقاق ، وتلك تستند الى الايات كمبدأ في وضع الاحكام . وفي كلتا الحالتين استند اجدادنا الى مبدأ المشابهة بصورة خاصة . ان الآيات تنجم في وجدان من يعيها بصائر ، تنجم كنظام خالد للحياة الانسانية ، بحيث ان الاحكام المستكملة شروط ماهيتها الاساسية حقائق مستقلة عن قيود المكان والزمان . وكلمة (فقه) ذاتها تعني معنى تفتح النفس عن الحقيقة مستضيئة بنور ذاتها . وانما الشريعة هي وضع الحقيقة في عبارة يسلك عليها الناس في حل المشاكل كقاعدة سلوكهم على الشارع كطريق معبدة . ومن هنا استعمل العرب كلمة (سنة) بمعنى القانون ، نظرا لما تتضمن هذه الكلمة من معنيين : معرفة وعمل بها ، واذا كان العرف قد اصطلح على تحديد كلمة (سنة) بمعنى سلوك النبي محمد في تفسير الايات وتطبيقها ، فما من أحد أحق ممن توجت شخصيته بالرسالة بأن يستشف من خلال الواقع القائم الحقائق الخالدة .

وهل الاحكام الموضوعة من قبل ائمتنا غير محاولات لحل معضلة الحياة على ضوء الايات ؟

هكذا كانت شريعتنا ؟ جذورها في السماء وتجلياتها في المجتمع مثلها كمثل الامة التي هي احدى ظواهرها :

« ان الحرية والمساواة ، ركنا الديموقراطية ، ينتهيان الى الحق وهما منه يستمدان قيمتهما • واذا تميز الانسان عن الحيوان بالقيمة التي يرتفع بها عن ان يكون ـ شيئا من الاشياء فذلك لانه يتعدى ، بصبوته الى التعالى ، سلسلة الحوادث الطبيعية نحو مصدر القيم الاخلاقية • ان الانسان يستجلي قيم اعماله على ضوء الحق ويحول بهذا الاستجلاء معنى الحياة • بينما تبقى الاشياء بتفاعلها في الطبيعة ، محصورة خاضعة لمبدأ تعادل القوى ، واذا قدس النظام الديموقراطي الشخصية الانسانية فان تقديسه للحق المقيم في هذه الشخصية الانسانية كتقديس الهيكل الذي يشرف عليه المعبود من عليائه • وقد تكسف القوة الحق ، عن النفس كما تحجب الغيوم النجوم عن الرؤية • ولكن الحق يبقى متلألئا في عليائه تلألؤ النجوم في افلاكها » من رسالة المدنية والثقافة للمؤلف ـ

اذا تقصير تشريعنا في الاونة الاخيرة لا يعود لتقصير فقهائنا بالمنهج ، بل يعود لالتباس الشكل عليهم بالمعنى ، لالتباس العبارة بآيتها التباسا ضلوا فيه أكثر فأكثر عن الغاية • ومع ذلك فأين للاغيار انسجام تشريعنا ؟ ها هي ذي تركيا الحديثة وقد فاتها الحدس في مبدأ الشريعة ، انها تستعير عن امم مختلفة بالعبقرية مصادر قوانينها وبعد ذلك تدعي انها تأخذ بمرافق الحضارة • انها بذلك كمن يرتدي ثوبا مبرقعا متنافر الالوان وها هي ذي فرانسا وقد ادعت أمس مهمة تهذيبنا ، تتلمس عبثا طريق خلاصها •

وهل تقصر بالاصالة مفاهيمنا الدينية عن لغتنا وشريعتنا ؟ ان الاسلام هو دين الفطرة وليست ديانات الشعوب السامية التي استظلت الاقوام

بظل اعلامها غير قبس من ديانتنا . ها هو موسى يقتبس عن شعيب ، الذي هو نبي عربي ، اسم الهه (ياهو) ثم يحرفه اليهود الى (يهوه) ومازال متصوفونا يستعملون كلمة (ياهو) أي ياذا الذي نعجز عن وصفه الصفات ، معنى افصح عنه علي ابن ابي طالب اذ عرف الاله بقوله : عنه تصدر الصفات لا بالصفات يوصف معنى استعاره فيلسوف فرانسا برغسون فزين به مقدمة كتابه (التطور المبدع) .

او ليس اسم (افتاح) اول آلهة مصر القديمة تحريفا لاسم (فتاح) باللغة العربية . وهو احد الاسماء الحسنى المرادف للقاضي والعادل .

ولهذا فانه ليس من العبث ان كانت الاسطورة في مصر الفرعونية تقول بان جزيرة العرب مهبط الآلة . هذه الاسطورة ما تدل على اصول الثقافة المصرية : سواء في عهدها الحاضر او في عهودها الغابرة . والى م ترمز مكة ، مهد رسول الاسلام ، اليس الى اول بيت شيد في العالم ؟ أليس الى الاستقرار والحضارة وكما كانت ترمز جزيرة العرب عند المصريين الى مهد الديانة بصورة عامة ؟

وهل تختلف الديانة البابلية والفينيقية ، من حيث علاقتهما بديانتنا ، عن الديانة الاسرائيلية او المصرية ؟ ومن هما الها حضارة ما بين النهرين (انو) و (ايا) اذا لم يكونا تحريفا لـ (انا) بمعنى (الواحد الاحد) وايه بمعنى الاية او الاله متجسد انسانا (كما في المسيحية : في البدء كان الكلمة) .

واله فنيقيا : (ادونيس) الذي هو اله الجمال ، انما هو اسم منحوت من (ادى ـ اعطى) و (نى) فتفيد باصلها اللغوى (الفيض ، الحسن ، البهاء) .

هكذا كانت آلهة الشعوب السامية : صفات او اسماء حسنى للاله المشتق اسمه في لغتنا من (أله يأله) باعتبار ان الله هو غاية الغايات ، الغاية التي تصبو اليه جميع الكائنات .

العروبة : حرية ومروءة

كلمتا « عروبة » و « عرب » هما مصدران لفعل « عرب » . وكلاهما يتضمن معنى الابانة والافصاح : اعرب الرجل عما في ضميره ، واعرب عن لسانه ، والعرب العرباء : : ـ الصرحاء الخلص واعربهم حسبا : ابينهم واوضحهم . وقد ورد المعنى نفسه في الحديث « الثيب تعرب عن نفسها » . ولكن كلمة « عرب » تحولت بالتداول من مصدر الى اسم مصدر بحيث اصبح معناها يتردد بين الحدس والتشخيص .

وفقا للمعنى المتقدم هذا صار تقسيم العرب الى عاربة ومستعربة ومستعجمة ، فمن أعرب سليقة فهو من العاربة ، ومن اعرب تكلفا فهو من المستعربة ، ومن انحرفت اداة بيانه عن الفصحى حتى البربرة فهو من المستعجمة . وكلمة « بربري » نفسها من برابرا ، فتعني خارج الحظيرة ، هذا التقسيم قد بني على اعتبار ان اللسان العربي هو المقياس في البيان . وتفيد الضمة على الحرف الثاني من فعل « عرب » معنى السليقة .

وبهذه المناسبة نحاول ان نقشع الابهام عما لصق بكلمة « سامي » فقد جرت العادة ان ينعت العرب والاقوام التي تشعبت عنهم كالكلدانيين (بنو خلدة) والآثوريين (بنو ثور) بالساميين ولكن بينما كان اجدادنا يعنون بالسامي المعنى الاشتقاقي للكلمة (سما يسموا سموا) المعنى الذي يلتقي مع الاسطورة التي تقول باننا اولاد السماء ، بينما كان الامر كذلك واذا باليهود يحرفون هذا المعنى الى آخر (سام بن نوح) ،

شأنهم بتشويه معالم ثقافتنا شأن هجائنا الشعوب السامية الاخرى • واما ما عنى اجدادنا بالسماء فهو الوجدان ، لا الفضاء الذي تتطلع اليه انظار الانسان • وانما الفضاء رمز للوجدان • في هذه اللوحة الفنية ، النجوم صور رمزية للحقائق التي تتلألأ في النفس بصائرا • ولئن اشتق الذهن العربي كلمتي (ذكاء)و(ذكاء) من نفس المصدر فقد بدت له النجوم من الشمس ، والحقائق من الذكاء كمظهرين لذات الحقيقة •

واما ماعنى اجدادنا بكلمة « ولادة » فهو بدور المعنى من الاتصال بين النفس والرحمن • وكلمة « رحمن تشير الى هذا المعنى بصورتها الحسية « الرحم » • وكلمتا « هبوط » و « تسامى » يعنيان في نظر « أجدادنا » الاقبال والاعراض ، اقبال النفس الى مصدر وجود الكائنات ، او الاعراض عنه ، ففي الاقبال ازدهار وفي الاعراض جدب وجفاف •

هكذا أخص العرب انفسهم بالبيان ، بالصفة التي يتميز بها الانسان عن البهيم الحيوان • وهكذا دلوا باسطورة نشأتهم على حكمة وجود الانسان وهي ان يكون ذاتا على مثال الاله يبدع ويشترك بمبدعاته مع العناية في تعين مصيره كبطل وفنان •

ولكن الكلمة كعبارة لا تبقى عند معنى : ـ « عبر » عند نقل الفكرة من صاحبها الى الجماعة • ان مهمتها تتعدى الافصاح الى انماء الحياة ، يستجلى الاسلوب ، ببيانه ، الحدس المتوقف على استجلاءها ازدهار الانسان ، كما يستجلى الجسد ، بنموه ، الميول ، فمتى تأتي الصور موافقة لمعناها تنبعث من ثناياها أشعة تزيد من ذكوة الحياة ، واذا ما كثرت هذه الصور أصبح الذهن وكأنه تحت شمس دائم ضياؤها • وقد يرجع الى تجربة فنية كهذه ادراك الشبه بين الذكاء في النفس وبين المعنى (ذكاء) في الطبيعة • والا فكيف كان

اهتدى الى اشتقاق الاسمين من نفس المصدر ؟ وقد يرجع الى تأجج الذكاء الحاصل من مطابقة الصوت للمعنى في الكلمة العربية الدقة في اللسان العربي ، من حيث الحركات والحروف والصيغ .

وهل يقف شأن الذكاء على اظهار التلون في الاشياء وعلى اظهار معالم الآيات ؟ انه يقي الارادة من التردد والحيرة أيضا . مثل الذكاء في اشد ازر الارادة وتثبيته للعزم على المكارم كمثل رمزه الشمس في ايقاظها الاحياء من رقادها وفي هدايتها سواء السبيل .

وهاك كيف تراءى سر الحياة لاحد شعرائنا حاتم الطائي ، وشهرة الشاعر خير دليل على صدق تعبيره عن تجربة بني قومه :ـ

اشاور نفسي الجود،حتى تطيعني واترك نفس البخيل،لا استشيرها

بعيني عن جارات قومي غفلة وفي السمع من حديثهم وقر

هذا من الناحية السلبية ، واما من الناحية الايجابية فيلخص شاعر آخر من شعرائنا موقفه بما يلي : ـ

لعمرك ، ما امرىء على بغمة نهاري ، ولا ليلي على بسر مد

واذا ما سلك المرء هذا المسلك أدرك المستوى الذي يصبح فيه سيدا للقدر .

ومتى ارتقى المرء الى مستوى الحرية أصبحت فيه المروءة سجية . واليك بعض العبارات التي تعبر عن مظاهر المروءة .

اذا كنت ربا للقلوص، فلا تدع رفيقك يمشي خلفها، غير راكب
انخها ، فاردفه ، فان حملتكما فذاك ، وان كان العقاب فعاقب

لقد كنت اطوي البطن، والزاد يشتهى مخافة ، يوما ، ان يقال لئيم
حاتم الطائي

اذا القوم قالوا من فتى؟ خلت انني عنيت فلم اكسل ولم اتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ، ولكن متى يسترفد القوم ارفد
وان يلتقي الحي الجميع تلاقن الى ذروة البيت الرفيع المصمد
وان ادع للجلى اكن من حماتها وان يأتك الاعداء بالجهد اجهد .
طرفة

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

. . . . . .

اذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول .
السموأل الغساني

عليهم وقار الحلم حتى كأنما وليدهم من أجل هيبته كهل
ان استجهلوا لم يغرب الحلم عنهم وان آثروا ان يجهلوا عظم الجهل .

. . . . . .

محرمة الأكفال خيلي على القنا ودامية لباتها ونحورها

ولما بلغ أحد الاعراب ان أخاه قد قتل قال : ـ
ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ، انا والله لا نموت حتفا ولكن قطعا باطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف .

حرام على ارامحنا طعن مدبر وتندق منها في الصدور صدورها

. . . . . .

كان العربي يستعين ببني قومه على بلوغه مستوى الحرية والمروءة ، وكان مسنده في البقاء على هذا المستوى المسؤولية المشتركة بينه وبين أجداده واخوانه قاطبة . وكان دليله في صلاح سلوكه

ما كانت تلقى أعماله من صدى مستحسن عند الآخرين . مثله بذلك كمثل الاحياء في اتخاذها اللذة والنشاط معيارا لملاح الغذاء حتى لكأن الصيت (الذكر الحسن) صدى صوت الحق في وجدان المجتمع .

اذا ما صنعت الزاد ، فالتمس له اكيلا ، فاني لست آكله وحدي
أخا طارقا ، اوجار بيت ، فانني أخاف مذمات الاحاديث من بعدي
وتذكر أخلاق الفتى وعظامه مغيبة في اللحد بال

. . . . . .

فاثنوا علينا (لا لابيكم) بافعالنا ان الثناء هو الخلد

. . . . . .

ان العرب اذا حرصوا على تثبيت المكارم الاخلاقية بالوراثة فانهم يوفرون على الاولاد والاحفاد الجهد المبذول في اكتسابها ويوقونهم من خطر التردد في الاقدام على جليل الاعمال . والمفاخرة عندهم تدل على جدول القيم في الاصطفاء ، وعلى قيمة الوراثة بصفة خاصة .

« قال خالد لربيعة : ـ اعطيت من سأل ، واطعمت من أكل ، ونصبت قدوري حين وضعت السماك ذيولها ، وطعنت يوم (شواحط) فارسا فحللت فخذيه بفرسه . وقال ربيعة يا قعقاع ما عندك؟ فأخرج قوس حاجب فقال : ـ هذا قوس عمي رهنها عن العرب وهاتان نعلا جدي قسم فيهما اربعين مربعا ، وهذه زريبة زرارة لم ير ناره خائف الا أمن ولم يمسك بطنب فسطاطه أسير الا فك . فنادى ربيعة ان السماحة واللهس والمربع والشرف الاسبغ للقعقاع الا اني نفرت من كان ابوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة .

« كانت العرب في الجاهلية اذا تنازع رجلان منهم في الشرف تنافرا في حكمائهم فيفضلون الاشرف • ونافر معناه حاكم في النسب وسميت منافرة ، لانهم كانوا يقـــولون عند المفاخرة أنا أعز نفرا – بلوغ الارب •

هكذا كان العربي يجعل الحياة وقفا للمثل الاعلى : –

ابيت هضيم الكشح مطمر الحشا من الجوع اخشى الذم ان اتضلعا
واني لاستحي رفيقي ان يـرى مكان يدي من جانب الزاد اقرع
وانك مهما تعطي بطنـك سؤله وفرجـك لانال الـذم اجمعـا

كان العربي يمنن اولاده بأنه اختار لهم أما من أصل عريق بدلا من أن ينطلق لرغباته مستمتعا بشهواته • وهو بهذا الاختيـار كان يضمن لهم ميراثا حيا يردعهم عما يعترض الطريق الى المثـل الاعلى بحيث تصبح فيهم المكارم سجية •

فقلت دعيني انما تلك عـادتي لكل كريم عادة يستعيـــدهـا
ومن يبتدع مانيس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها
حـــاتم

علونا الى خير الظهور وحطنـا لوقت الى خير البطون نـزول
صفونا فلم تكدر واخلص سرنا اناث أطابت حملنـــا وفحـول
السموأل الغساني

• • • • • • • • •

ومايك من خير أتوه ، فانمـا توارثهم ابـاء ابائهـــم قبـــل
وهل ينبت الخطى الا وشيخه وتغرس الا في منابتها ، النخل
زهير

لم تكن حكمة وجود الحياة في الحياة ذاتها ، بل في أغراضهـا وانما اللذة وسيلة للتميز بين مراتب الاغراض •

ولكن هل وجهة العربي هذه نحو الذاتية غير وجهة الحياة نفسها ؟

« ولقد بنت الحياة هذا البدن قاعدة عليها ترتقي النفس ، وآية بها تهتدي : ـ اذ تتلازم عناصره في وحدة عضوية يتمم بعضها ببعض .

« وهي التي قد ميزت هذا البدن بالاحساسات والمشاعر معا اذ انها بالاولى حددت علاقته بالاشياء ، وبالمشاعر عينت خاصيته بالنفس .

« تغلق وجهتا المؤثر بالاثر فيلبس الحس بالمحسوس بنسبة علاقة الاول ببنيان البدن . فتكشف هذه النسبة عن غاية الحياة من الوجود : ـ اذ أن الاحساسات تبهم وتتضاءل رغم خطورتها ، والاعصاب المختصة بها تتناثر باقترابها من بنيان البدن وهي ، أي الاحساسات ، بنسبة ما تستدق تلتبس بالالم .

كأني بالحياة قد تقصدت من ذلك ان تقي الانسان من الاستغراق في هذا الاتجاه : ـ استغراقا قد يعوقه عن غايته الاصلية ، ولذلك اكتفت بتجهيزه اجمالا بشعور عام ، سواء أكان باتزان البدن فيحصل عنه السرور ، ام بنموه فينتج عنه الفرح . بينما تتفاوت اجهزة الحواس انتظاما ، بنسبة نزعتها الى العالم الخارجي وتحررها من انفعالات البدن ، والسمع والبصر يمثلان غاية هذا الاتجاه ويكشفان عن صبوة الحياة الى الانانية كما تكشف الحياة العملية أيضا عن نفس الاتجاه : ـ اذ تلتبس فيها الاشياء بالنزعة اليها فتشبع بمشاعرها ، وتستغرق الحدس الاجتماعية في تقاليدها فيطمس على قيمها ، ويتغلب حينئذ نمط التداعي على التفكير : ـ فتستقطب المشاعر الصور وتجتذب الصور بتداخلها المشاعر اليها ويحصل عن هذا التدخل الاساطير المعبرة عن مفاهيم هجينة وعقيمة،

فيضيق بذلك أفق الحياة وتلتبس السماء بالارض ، فينتج عن هـذا الالتباس الوثنية وينتهي المجتمع ، حينئذ ، بالحالة الابتدائية .

واليك ما عبر به العرب ايما تعبير عن قيمة الحياة : ـ

فصبرا في مجـال الموت صبرا فمـا نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقـاء بثوب غـر فيطوي عن اخي خنع البـراعي
سبيل الموت غـاية كـل حي فداعيـه لاهـل الارض داعي
ومن لايغتبط(١) يسأم ويهرم وتسلمـه المنون الى انقطاع
ومـا للمرء خـير في حيـاة اذا مـا عد من سقط المتـاع

وقد أيد القرآن وجهة نظر العرب المثالية في الحياة بالآية : ـ

« ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا »

كثيرا ما كان الرجل ينسب الى جده او الى أحد عمومتـه اذا كان أشهر من أبيه . ومن هنا قول محمد بن عبد الله : ـ أنا أخلص العرب لا كذب ، أنا بن عبد المطلب .

ما كان الرجل ليعد الا اذا كانت مناقبه تهدي النـاس نحو مستقبل أكمل ، وكانت تجربته في الحياة قد رسمت بنية احفـاده فوجهتهم نحو مثل أعلى أكمل .

هينـون لينـون ذوو كـرم سواس مكرمة ابنـاء أيسـار
ان يسألوا الحق يعطوه وان خبروا في الجهد ادرك منهم طيب اخياري
وان تودتهم لانوا وان شـهموا كشفت اذمار شـر غـير اشرار
فيهم ومنهم يعـد المجـد متلدا ولا يعـدثنا خـذي ولا عار
لاينطقون عن الفحشاء ان نطقوا ولا يمارون ان ماروا باكثـار
من تلق منهم لا قيت سيـدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

ومن وجهة النظر المثالية في الحياة تتبع الاختلاف بينا وبين

غيرنا من الاقوام • فان شاعرنا ينشد أعماله ومناقب أجداده فتنسجم فيه الشاعرية والبطولة معا • وان مصلحنا يغترف الحقائق من عالم الغيب فيجعل نفسه رهنا لتحقيقها كرسالة ، بينما الشعراء ، عند غيرنا من الاقوام ينشدون بطولة الابطال والمصلحون حكماء تستقل تأملاتهم عن الواجبات •

واليك كيف تراءت لاحد شعرائنا منزلة أجداده في الحضارة :-

ورتبنا مراتب كل ملك فكان لنا الخلائق مقتفينا
سننا للبرية كل فعل جميل من فعال الاكرمينا
فهم يتشبهون بما فعلنا ومن آثارنا يتتبعونا
وليسوا مدركين لنا لانا جعلنا السابقين الاولينا

وهكذا يصدق على العرب قول مأثور : « اسماء تنزل من السماء • وهكذا يصدق على العروبة الحديث : - ان من البيان لسحرا ، سحر ايجاد الحياة وابداعها ذاتها بذاتها نامية أبدا •

منزلة العرب في الحضارة

للحضارة وجهتان : المدنيـة والثقافة . أما الوجهـة الاولى فتشمل الادوات على اختلافها في النوع والدرجـة ، من المقعـد الى الطيارة ، ومن البريد الى الهاتف . وكلمة « مدنية » نفسها تدل بأرومتها اللغوية « مد » على التبسط في المعيشة ، على الرفاهية . وكان صنم « مدان » في الجاهلية يرمز الى المدنية .

وأما الوجهة الثانية ، التي هي الثقافة،فغرضها افصاح الانسان عن انسانيته افصاحا يتحول فيه من شخص منساق بالغرائز والتقاليد الى ذات على مستوى الحرية . وكلمة « ثقافة » ترجمـة لكلمـة culture في اللغات الاوروبية . فهي « تتضمن معنى الحرث» في اللسان العربي . (حرث الشيء : تفقه فيه ودرسه ، حـرث الامر : تذكره واهتاج له) وكلمة « حرث » أو « حراثة » تشير بأرومتها « حر » الى معناها الاصلي الا وهو حرية الافصاح عمـا تتمخض عنه النفس ، وحرية الاشراف من عل على المصير . وكان الاسد رمزهذه الحالة عند أجدادنا ، ومن هنا كنيته « الحارث » . واذا تحول معنى كلمة « حراثة » من استنباط المعاني الى استنبات البذور ، فان الحياة في مرحلتيها تقوم على استجلاء الحالات الكامنة في صميمها . وأصل الكلمة من الحرية يدل على ان المعنى الانساني قد سبق المعنى المتعارف عليه في الزراعة .

ونحن نستخلص مما تقدم ان الحرث la culture **يشملُ** جميع مظاهر الحياة الانسانية ومنها المؤسسات لاجتماعيـة بصورة

خاصة (كاللغة والتشريع ، والفنون والديانة) ، واما كلمة « ثقافة » فتنعني عندنا معنى التثقيف ، أي التقويم • فاذا كان القصد من وضع هذا الاصطلاح كترجمة لمفهوم culture ، هو اظهار تأثير الحياة القويمة على نمو الشخصية وازدهارها ، فلا بأس من هذا الوضع •

وبعد ذلك نعود الى كلمة حضارة ونتساءل هل تتضمن معنى المدنية والثقافة معا ؟ حضر،حضارة : أقام الحضر (القرى والارياف والمنازل) ، والحضري خلاف البدوي • ومن جهة اخرى ان كلمة « حضن » التي هي أرومة حضر تعني معنى الاستشارة • واذن فالحضرة استقرار يساعد على اذكاء الحياة وانمائها •

وبناء على ما تقدم فان مرتبة الامة في الحضارة تتعين بمدى تنوع نقاط ارتباطها بالطبيعة ، روابط تخضع بها الحوادث لمشيئة أبنائها ، وبمدى سبرها أغوار الحياة ودعمها الاجيال في صبوتها نحو المثل الاعلى •

هكذا يقاس تقدم الامة في مضمار الحضارة بالآلة ، (تنوعها وقدرتها) وهكذا تقاس أصالة ثقافتها بما يهدي اليه نظام قيمها من غايات سامية •

ولكن هل تنفصل وجهتا الحضارة : المدنية والثقافة ؟ الا تمثل كل منهما قطبي الانسان؟ وبتعبير آخر الاتنمو الانسانية بنمو الفسحة والعمق متناسبين معا ؟ •

« أليست العبقرية فكرة تفتحها متواصل مطلقا منذ ما استيقظ صاحبها على الوجود ، تحقيقا لما انطوت عليه الحياة ؟ فاللمحات المنبعثة عن تجليات النفس المتفتحة وفق طبيعتها ، تتحول بسامیها ، الى قبس تزول بنوره الفوارق ، كما لو اشتد نور الاشعة المطلة من النجوم وشفت به المسافات الفاصلة بينها فبدت السماء ، حينئذ ، وحدة نورانية •

« فبهذا النور ينكشف للنفس بنيانها فيبدو هذا البنيان مثلما تبدو الاشياء في القطب تحت شمس دائم ضياؤها » وبهذا النور أيضا تستقطب الذكريات ، فتتجاذب ، وتنشىء النفس منها عالمها (عالم : من علم وهذه من علا) وتلقيه على الكون .

فالعلم ينشىء هيكله من تلازم الحوادث الاصيل (المناسبات الثابتة بين الحوادث اي القوانين) والفن يحقق مراتبه المتسامية بخيال يصنعه من الصور الحسية .

وهذه المناسبات الثابتة ، تتحول ، بالصناعة الى قواعد عملية ، فيسيطر الانسان على القدر بالآلة ، التي يبنيها عليها ، اما في الفلسفة فانه يرتشف من ينبوع هذا التجلي (من رسالة « العبقرية العربية في لسانها » للمؤلف) .

ومع ان المدنية تستهدف السيطرة على الطبيعة واخضاع ظروف البيئة لمشيئة الانسان ، ومع ان الثقافة تنزع الى الكشف عن آفاق الانسانية المتسامية ، فان ما يبدو من تباين بين وجهي الحضارة هاتين يرجع الى اتجاهي تطورهما . والا فكل ما هو انساني يحمل طابعا رمزيا يتحول لدى الوعي الى معنى ثقافي . فالبناء كملجأ ، هو من طبيعة الآلة ولكنه ، كأسلوب ، يتكيف بحسب الغاية التي انشىء من أجلها مما يجعل اسلوب القلعة مختلفا عن كل منهما . أليست الآلة معرفة تحولت الى عمل ؟ أولا تستعين بتجارب الاجداد الرحمانية المثالية كتراث تبعث به معنى التجارب حيا في نفوس الاحفاد ؟ .

هكذا تتلازم المعرفة والآلة في الحضارة تلازم الوظيفة والعضو في الجسد ، كلاهما يستهدف نفس الغاية . وعلى الانسجام بينهما يقوم تقدم الامة وتكاملها وبمدى توافقهما تقاس مراتب الامم في سلم الانسانية (١) .

---

١ ـ من كتاب العبقرية العربية للمؤلف .

أليس كل ما هو انساني ذا طابع ثقافي ؟ انما معيار صدق الثقافة هو فلاح الجماعة ونمو الشخصية ذاتا مزدهرة .

ولما كانت مرتبة الامة في الانسانية تتعين برسوخ قاعدة كيانها في الطبيعة وبشدة انطلاقها نحو المثل الاعلى فاننا نرتئي اتخاذ الآلة مقياسا لتقدمها في المدنية واعتبار زكوة الشعور الانساني مبدأ آخر في تقدير اصالة ثقافتها ، ونقتبس بعض المقاطع من كتاب لدينا تحت المطالعة تظهر فيها رأي المؤلف المؤرخ الالماني « هل » في فضل العرب على الحضارة :

« ... ان القوانين البشرية تقرر انكلا من الشعوب والازمنة تمد يدها للآخر ، وان شعلة المعرفة لا بد ان تنتقل من قوم الى آخرين ، كأنما لن يتمكن أحد من اشعالها لو انطفأت مرة . ثم انه مجد النادر ان ننظر الى المعارف القديمة في الازمنة المختلفة على اعتبار ان بعضها منفصل عن بعض ، ولذا فانه ليس من الانصاف ان نأخذ على الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى قيامها على أساس من حضارات العصور السابقة » .

« ولم يكن في استطاعة فيورباخ ، ورجيو موناس وكوبرنيق ان يصلوا الى ما وصلوا اليه دون أساس من علوم العرب ، وما أسهموا به في ميدان الرياضيات » .

« والى جانب هذه الابحاث قام ابن الهيثم ، على نماذج يونانية، بتجارب على المرايا الكروية والمثلثة ،وابتكر طريقة صحيحة لايجاد البعد البؤري . ونقل روجر بيكون نتائج هذه الدراسات الى طلبة الغرب . وكذلك قام ابن الهيثم بابحاث أخرى خاصة بما يسمى الغرفة المظلمة (أو آلة التصوير camera obscure) التي كان هو أول من استخدمها . ويعزى اليه أيضا اكتشاف التمييز بين الظل وشبه الظل ، وترجمة رسالة ابن الهيثم عن المرئيات الى اللاتينية والايطالية ، واتخذها كبلر مرجعا اعتمد عليه في أبحاثه .

وكذلك يبدو ان ليوناردو دوفنشي عرف أعمال ابن الهيثم واستخدمها .

« وان تفوق العرب الواضح على الاغريق في هذا الميدان يعزى على استخدامهم التجارب العلمية في استجلاء الغموض والمظاهر المهمة في دراسة الطبيعة ، على حين اعتمد الاغريق الاول على التأملات البحتة » .

ان مثل الامة كمثل حامل ثقافتها الفرد هذا يدل مدار شفقه على رفعة منزلته ، وتلك يدل على مرتبتها مدى تأثيرها على سير الحضارة عبر الاوطان والاجيال . واليك مقاطع اخرى من الكتاب الذي ذكرنا آنفا يكشف بها عن الفرق بيننا وبين غيرنا من الاقوام :

« ثم ان تأسيس المسلمين لمدارس هذا النوع « من الثقافة العامة » ليس في بلاد العرب فقط ، وانما في البلاد المفتوحة كذلك ، ينهض دليلا على أداء مهمة لم تقم بمثلها العصور القديمة الكلاسيكية، أو عصور المسيحية الاولى .

« ان الفرنسيين والبيزنطيين والاقباط قد تردوا اذ ذاك في ثبات عميق ، واصبحوا عاجزين عن الابتكار والسير وحدهم في طريق التقدم . ولكن اتصالهم بالعرب هز كيانهم ، وايقظ فيهم حياة ثقافية جديدة » .

« وكان من حسن الطالع ، ليس للحضارة الاسلامية فحسب، بل ولاوروبا كذلك ، ان أخضع العرب كل ساحل افريقيا الشمالي وطرف أوروبا الجنوبي الغربي لدولتهم ... »

وهل كان شأن العرب مقتصرا على المرحلة التاريخية التي تحمل طابع النبي محمد ؟ أم كانوا يقومون بنفس المهمة في كل الادوار التاريخية المتقدمة ؟

أليست الشعوب التي كانت تحمل لواء الحضارة في العهود

القديمة من اورومة العروبة؟ان اسماء الفراعنة والكلدانيين والآثوريين انما هي تحريف لاسماء عربيـة : فرعون من فـرع (سلالة) ، ولكلدان من خلدة ، والآشوريين من الثور (بن ثور) ، وشعارهم الثور المجنح دليل على صدق النسب . هذا وان اللغات السامية تدل بكلماتها على مدى سلطان العروبة ، كما تدل الكلمات العربية في لغات الشعوب الاسلامية على تفوق ثقافتنا .

ان الامم وان كانت تتشابه بالقاعدة التي هي الحياة الاقتصادية أي الحياة التي يتم فيها التعادل المادي بين ما يستهلك الجسد وبين الغذاء ، لكنها تتميز بعضها عن بعض بنبرة الايقاع في نظام قيمهـا فمنها من يبقى كالزواحف منكبا على الارض مثقلا بتقاليده ، ومنها من يهيم كجوارح الطير ديدنها الاستيلاء على الارض ، ومنها من يبقى على تراث الانسانية الاصيل متجها بأنظاره الى السماء فيهدي الاخرين سواء السبيل .

« ان الامة العربية لم تزل منارة تسطع على العـالم فيهـدي شفقها الامم الى اهدافها ، بينما كانت الشعوب تظهـر على مسرح التاريخ ثم تتوارى عنه » .

ملحق

في السنين الاخيرة جرت مناقشات حول نشأة الحروف الابجدية بين ذوي الاختصاص في هذا الموضوع . ففريق منهم زعم ان الفضل في وضع حروف الكتابة الدارج استعمالها عند الامم المتمدنة يرجع الى كريت وان كن الفينيقيون ، وهم من سلالة الساميين قد نشروها في أرجاء العالم . ونحن عندما عقدنا العزم على دراسة اللغات السامية من أجل استجلاء أصول هذه اللغات واظهار علاقتها باللغة الام التي هي اللغة العربية وبدأنا بدراسة اللغة السريانية استرعى انتباهنـا النسبة بين شكل كل حرف وبين الشيء الذي يمثل منه أول حرف،

فشكل (آ) مثلا يمثل على شكل التقريب صورة انسان ، وشكل (ب) ، صورة البيت ، وشكل (ج) ، صورة الجمل ، وشكل (د) ، صورة الدلو ، وشكل (هـ) ، صورة الهالـة ، وشكل (ز) ، صورة الزند ، وشكل (ح) صورة الحبل ، وشكل (ط)، صورة الطير ، وشكل (ي) ، صورة اليد ، وشكل (ل) صورة اللجام وشكل (م) ، صورة المطر ، وشكل (ن) صورة النجم ، وشكل (س) صورة السن) ، وشكل (ع) صورة العين ، وشكل (ف) صورة الفم ، وشكل (ص) صورة الصبي ، وشكل (ر) صورة الرأس ، وشكل (ش) صورة الشمس .

وهكذا أخذ في وضع حروف الابجدية اول حرف من الشيء رمزا للشيء نفسه . ولكن اتخاذ الحرف الاول من الاسم كرمز للمسمى يدل على جنسية واضع الاصطلاح . ولما كانت حروف « الف باء » تحتفظ حتى اليوم بلفظها وترتيبها ، كما وضعت في الاصل ، ولما كانت هذه الحروف تمثل أول حرف من اسم عربي، فقد أصبحت اسطورة النبي ادريس ، أول نبي أعطى فن الكتابة ، اسطورة صادقة . وكلمة « ادريس » تشير باشتقاقها من درس الى الحقيقة تلك .

واذا كانت اللغة السريانية ظلت محتفظة بالشكل الاقرب الى الاصل فلأن أصحابها بقوا على هامش التاريخ منزوين . واما العرب، واضعوا الحروف ، فقد تطورت كتابتهم نحو الرمز أكثر فأكثر تطورا ابتعدت به عن صورة نشأتها .

ونحن نستخلص مما تقدم ان الفضل في وضع الحروف الابجدية يرجع الى العرب لا لغيرهم من الاقوام . واذا كان الامر كذلك فأي اختراع يضاهي في تأثيره على تقدم الحضارة اختراع الكتابة وتعليمها للعالم .

وجهة العبقرية العربية

لقد تطور كل من زمرتي لغات اوروبا الحديثة واللسان العربي في اتجاه مباين للآخر . تطور اللسان العربي نحو بنيان عضوي ، تستكمل به الكلمة شروط كيانها بالتعبير عن انسانية متسامية ، وتطورت اللغات الاوروبية نحو بنيان ميكانيكي تحول به الكلمة من صورة الى رمز يلتحق به المعنى عرضا واتفاقا . ثم ان كلا من هذين التطورين انتهى به الامر الى نتائج خطيرة في ثقافة أصحابه ، الساميين والآريين ، فرعي العرق الابيض .

والى هذا الاختلاف في التطور ، يرجع التباين في البنيان بين الذهنية العربية السامية وبين الذهنية اليونانية الاوروبية ، فقد تحولت الاولى الى ثقافة ذات طابع رحماني ، وتحولت الثانية الى ثقافة ذات طابع نسبي .

وما ان تحولت الكلمة في اللغات الاوروبية الحديثة من صورة الى رمز يتصرف به العقل كيفما شاء ، متخذا منه اداة حتى مهدت لمتكلميها السبيل الى فقه حدس اللانهاية ، الحدس الذي بلغ به العلم غايته من ايجاد قوالب رياضية ، تندرج فيها الحوادث الطبيعية ، فتشف على العقل وتخضع لطائلة الادارة ، وعندئذ اكتسب الذهن الاستعداد لادراك النظام قانونا في الكون وعدلا في المجتمع

وما ان رسخ التلازم بين الصورة والمعنى في اسرة الكلمة العربية حتى أخذت المدلولات الحسية والمفاهيم العقلية تتحاور وعقلا في النفس .

فتذكى بتجاوبها صبوة الذهن العربي الى الحقـــائق المنطوية عليهـــا النفس الانسانية ، ذكوة يتحظى بها المرء نسبية المظاهر مرتقيا نحـو الوحدانية المطلقة .

ان الاختلاف بيننا وبين غيرنا من الاقوام ، لم يقف عند حد التباين بين الطبيعة والانسانية ، اذ ان العقل الاوروبي ، بتأثير نزعته الى النسبية ، أخذ ينحدر نحو سطح الحياة فيتحول بانحداره من نام الى راكد ، وأخذت نزعته تشتد وتقوى ، لمسايرة صاحبها للعلوم الطبيعية ، حتى انتهى بها الامر الى أن عد الوجدان ، على غـرار الطبيعة ، مؤلفا من صور يدعو بعضها بعضا وفق قوانين معينـة ، كتداعي الحوادث الكونية في الطبيعة. واذ زعم « هيوم » بأن الحالات النفسانية تخضع بتداعيها للعادة خضوع الحوادث الكونية للعطالة ، فانما كان يرجو ابلاغ الفلسفة كمالها مثلمـا ابلغ معـاصره وابن جنسه « نيوتن » العلم غايته باكتشافه نظام الجاذبية العام ولكن خيبة « هيوم » في الفلسفة ونجاح « نيوتن » في العلم خير دليل على الاتجاه الاصيل لتفكير أعلام أوروبا .

ان نزعة الذهن الاوروبي هذه الى ادراك الانسانية من خلال الطبيعة قد ظهرت ، من قبل ، في الفلسفة اليونانية ، وما كانت المحاولة التي قام بها فلاسفة اليونان الطبيعيون ، لارجاع الطبيعـة والانسانية معا الى مبدأ مشترك بين الكائنات ، الا محاولة تغلب فيها التفكير بالتداعي على التفكير بالمصمم ، اي محاولة قام فيها التـأمل بالاسباب والنتائج مقام الايضاح بالابداع والانبثاق . أفلا يرجع الى هذه المحاولة أمر ظهور القدر مسيطـرا على الحيـاة ؟ وأمر ظهور الوجدان تاريخيا سرمديا ؟

واما الانقلاب الذي أحدثه « سقراط » بتوجيه التأمل نحو المفاهيم في حالة انبثاقها من النفس ، فـانه على رأي « افلاطون »

(تلميذه ومدون فلسفته) يرجع باصوله الى مبادئ دخيلة على بلاد اليونان . ومع هذا « فسرعان ما طمس اليم مجرى الباخرة »

وبينما كان الذهن الاوروبي يتحول من النسبية الى المادية ، كانت الكلمة العربية ، بتلازمها مع شقائقها ، تمهد لذهن صاحبها سبيل الصعود الى الآيات في مصادرها ، تمهيد الانغام ظهور الالهام في الوجدان .

ان الكلمة العربية عبارة شفافة تنم عن معناها فتذكي صبوة الذهن نحو الملأ الاعلى ، ذكوة تتناسب شدتها مع رفعة الصعود في هذا المنحى،واذا ما ألم الانسان باصول مظاهر الحياة المتبلورة حدسا في هذا اللسان ، انكشفت له الآية حقيقة انسانية واتضحت عندئذ له حكمة وجود الانسجام بين مظاهر اللسان المختلفة .

ان اللسان العربي ، ببنيانه ، ليكشف عن نمط الوجود في حالتيه : الطبيعة والتاريخ ، فتدل فيه المصادر والمفاهيم المنطوية عليها على وحدانية الانبثاق وانسجام المظاهر ، وتدل الافعال الى صلة من المصادر على تحول الكائنات الدائم ، وانما اسماء الجنس حدوس المصادر المتبلورة معانيها في أشياء مستفاضة أو في صفات منبعثة انبعاثا .

ولما كانت الكلمة العربية بادرة طبيعية ، تتمتع بالتعبير عن الهيجان وبنقله الى الآخرين ، فأنها تؤثر ، بايجاد التفاهم بين الناس وبخلق التعاون بينهم ، على تحقيق الاهداف المشتركة ، مما دعا الى القول المأثور :

« ان من البيان لسحرا » .

فلئن كانت الكلمة العربية تؤلف بين الـ « انا » والـ « انام » بالمشاعر ذات البنيان المشترك ، ولئن كانت توجه الذهن نحو المعنى ، باشتراكها في النزعة مع شقائقها ، فقد أصبح صاحبها أكثر قابلية

من سواه لفقه الانسانية ، والكلام العربي ، اذ يخلق بمنظومته الانسجام في النفس من جهة والانسجام بين النفوس من جهة اخرى ، ليجعل الحياة تفيض بالمشاعر وتحمل صاحب هذا الفيض على التضحية مهللا .

ان الاختلاف بين اللسان العربي واللغات الاخرى ، انما هو اختلاف بين الفطرة والعادة ، مثله كمثل الاختلاف بين الينابيع المتدفقة وبين الآبار ذات الاقعار المتصلة ، الآبار التي يكلف فتح مجراها الكثير من الجهد ، وتعجز مياهها عن تطهير هذا المجرى .

أما اذا زاغت الكلمات العربية عن حدوسها ، فان المؤسسات المشيدة عليها تتقلص ، وعندئذ يصبح المجتمع مشلولا كالجسد الذي خرجت فيه العظام من أحقاقها .

يحدث هذا الزيغ من تداخل الميول بتأثير الهجانة ، فتضمور القيم الرفيعة من جراء هذا التداخل ، حيث تتقمص المفاهيم صورا هجينة .

ان ما يجب علينا ، والحالة هذه ان نبدأ بعثنا القومي ببعث كلامنا ، وان نحذر على خرجنا المقدس هذا من الدخلاء على بيئتنا .

بين الجاهلية والاسلام

الينبوع يثير شعور الروعة ، اذا نشب من تحت الصخرة ، وهو يبعث السرور والبهجة في النفس اذا تردد في مجراه فكللـه بحلة من العشب والزهر .

وكذلك الحياة : تتجلى روعتها في الصبا حين ينطلق صاحبها نحو المثـل الاعلى ، وتزهو جمـالا حين تتفتح عن كوامنها في الشيخوخة . وعبارة شاخ الزهر تشير الى المعنى ذاك (شاخ الزهر: تفتح عن كامل مكنوناته) . وعلى هذا فان كانت الجاهلية تمثل طور الشباب من حياة أمتنا ، فان الاسلام يمثل سن الاستواء ، سن النضج . وهاك بعضـا من الابيـات والاقوال التي تعبر عن نبـرة الايقاع في كل من العهدين :

« واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . « واذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى » . « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجاهلة ثم يتوبون من قريب » . « اذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل » .

وتبدو أخلاق الجاهلية فيما يلي :

ان استـجهلوا لم يغـرب الحلم عنهم
وان آثـروا ان يجهلوا عظم الجهـل
لا يجهلـون وان حـاولت جهلهم
في فضـل أحـلامهـم عن ذاك متسـع

يـــزعون الجهـــل في مجلسهـــم
وهم أنصـــار ذي الحلـم الصمـــد

هكذا تعني الجاهلية المعنى الاقرب الى نزق الشباب وطيشه .

هذا المعنى يؤكده اللسان العربي : (جهلت القدر : اشـــتد غليانها) ، (استجهلت الريح الغصن : حركتـه) ، (جـاهله : سافهه) ، (جهل : حمق وجفا وغلظ) .

ويشير النابغة الذبياني الى المعنى عينه اذ يقول :

فـــان يك عـــامر قـــد قـــال جهلا
فـــان مظنـــة الجهـــل الشبـــاب

واليك بعضا من الآيات التي تشير الى أخلاق العهـد الجديد ، الاسلام :

« لا تمش في الارض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختـال فخور » . « وأقصد في مشيتك واخفض من صوتك » . ان الله لا يحب الفرحين (البطر) » . « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

ودعوة الاسلام في الاعتدال تظهر في ما يلي من نصائح تتعلق بالجود : « ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين » . « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان ذلك قواما » . « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » . « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . « ويسألونك مـــاذا ينفقون : قل العفو » .

وتحول نبرة الايقـاع في حيـاة العرب ، تدل عليـه الآيات التالية :

« واتبع فيمـا أتاك الله الدار الآخـرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » . « أفرأيت من اتخذ الهه هواه » . « اعلموا انمـا الحياة

الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما » .

هذا ، بينما كانت نبرة الايقاع تقع في الجاهلية في الطبيعة ، على أسمى مظهرهـــا : الفـارس الشـاعر ، وبتعبيرنا المعـاصر : البطل الفنان :

ويـوم عقـــرت للعـــذاري مطيتي
فيـا عجبا من كورهـا المتحمل (١)
فظل العـذارى يرتمـين بلحمهـــا
وشحـم كهـــداب الـدمقس المفتل
ويوم دخلت الخـدر خـدر عنيزة
فقـالت لك الويلات انك مـرجلي
تقول وقـــد مـال الغبيط بنـا معـا
عقرت بعيري يا امرأ القيس فـانزل
فقلت لهـا سـيري وأرخي زمـــامه
ولا تبعـديني عن جنـــاك المعلـل
« امرؤ القيس »
اذا القـوم قـــالوا : مـــن فتى ؟
خلت اني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
وان أدع للجلى أكن من حمـاتها
وان يـأتك الاعـــداء بالجهد أجهد

كان امرؤ القيس مولعا بابنة عم له فاطمة . فبينما هو جالس مرت به فتيات وفيهن ابنة عمه يردن غدير الماء ، فتبعهن مختفيا ، فلما تجردن ودخلن الغدير ،وثب على ثيابهن فاخذها وقعد عليها وقال : والله لا اعطي واحدة منكن ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذها بيدها . فابين ذلك عليه حتى ارتفع النهار فلما خشين فوات الوقت خرجت احداهن فوضع لها ثيابها ناحية فلبستها ثم تتابعن على ذلك ولم يبق منهن الا ابنة عمه ، فناشدته الله ان يطرح اليها ثيابها فقال : لا والله اوتخرجي ، فخرجت.. ثم قال : ان تحرت لكن تأكلن منها ؟ قلن : نعم ...

لعمرك ، ما أمري علي بغمة
نهاري ، ولا ليلي علي بسرمد
« طرفة بن العبد »

* * *

لنا الدنيا ومن أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا بلغ الفطام لنا صبي
تخر له الجبابرة ساجدينا
« عمرو بن كلثوم »

ليس العطاء من الفضول سماحة
حتى تجود وما لديك قليل

وقد بلغ التفاؤل بالطبيعة عند الجاهليين مبلغا عظيما حتى لقد آثروا الاعمال التي تصدر عفوا على الاعمال التي تنتج عن تأمل وروية .

نعفو، كما تعفو الجياد ، على
العلات ، والمخذول لا نذره

* * *

لا يتكون الارض عند سؤالهم ،
لتطلب العلات ، بالعيدان

* * *

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه
يدعه ويغلبه على النفس خيمها

واذا كان الجاهليون ينشدون الخمرة ، فليس ذلك لانها تبعث النشوة فحسب ، بل لانها تكشف أيضا عن الاصالة وتقشع عن النفس ما يكدر رونقها كأعمال النظر في العواقب مثلا :

تجـــور بـــذي اللبـانة عن هواه
اذا مـــا ذاقهـــا حتى يلينـــا
ترى اللحـز الشحيـح اذا أمـرت
عليـه لمـا لـــه فيهـــا مهينا

* * *

ونشربهـــا فتتـــركنـا ملوكـــا
وأســـدا مـا ينهنههـــا اللقـاء

ولم يكن للاصطفاء في الزواج غرض آخر غير توفير مشقة التردد باقتحام الخطر في سبيل المجد :

ووجهة نظر الجاهلي تتجلى في المقامرة أيضا :

« كان لعبهم بالميسر منبعثا عن السخاء وكرم الطبع .. فاذا أقمر أحدهم جعل أجزاء الجذور لذوي الحاجة وأهل المسكنة » .

وثمة أمور أخرى تدل على تمجيد الجاهلين للطبيعة ، منهـا المنافرة والمفاخرة . ولئن كان الغلو يبرز الكوامن فان الحوادث التالية تكشف عن مرامي العقلية الجاهلية :

« والله لقد قتلته ، وانه لأعز علي من جلدة عيني ، ولكن لا يخطر فحلان في شول » .

« قال الاخنس لابي جهل : ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تجاذبنا على الركب وكنا فرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ،

فمتى تدرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الاخنس وتركه » .

« دخل قيس بن عاصم المنقري على النبي فقال : اني وأدت اثنتي عشر بنتا ، فما أصنع ؟ فقال النبي : اعتق عن كل موؤدة نسمة . فقال له أبو بكر : فما الذي حملك على ذلك ، وانت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة ان ينكحن مثلك » .

وكان من عز كليب وائل ان لا توقد نار مع ناره ، ولا يستبق أحد الى البوادر الا بأمره ، وكان ممن يجير الجراد » .

« ان الشقي وافد البراجم » . وذلك ان عمرو بن هند كان له أخ فقتله نفر من تميم ، فآلى ان يحرق به منهم مئة فقتل تسعة وتسعين . وكان نازلا في ديار بني تميم ، فأحرق القتلى بالنار ، فمر رجل من البراجم ، فلما رآه عمرو قال له : ممن أنت ؟ فقال : رجل من البراجم . فقال : « ان الشقي وافد البراجم » ، فقتل والقي في النار فبرت يمينه » .

ومع الاختلاف في نبرة الايقاع في الحياة بين العهدين ، فان الاسلام ، من حيث الاخلاق ، امتدادا للجاهلية : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام » . قال النبي لسفانة بنت حاتم الطائي : « صفات أبيك هي صفات المؤمن ، لو كان اسلاميا لترحمنا عليه ، فان أباك كان يحب مكارم الاخلاق » .

وكل ما في الامر هو ان الاسلام قدأضاف الى الاخلاقالفطرية أخلاقا دينية كعقد النية على العمل لوجه الله وفي سبيله ، والتقوى ، والاعتدال في أمور الدنيا بما يساعد على التأمل في الآخرة .. أخلاق يصبح فيها المسوغ للعمل ثواب الآخرة بدلا من الشهرة ، أخلاق تقوم فيها الروية مقام السليقة ، ان الاخلاق الفطرية هي أيضا مشيئة الله مطبوعة في جبلة الانسان ، أفليس الصدق مطابقة الصورة

(العبارة) للمعنى ؟ والمطابقة هذه بين المظهر والصميم هي من دواعي نمو الشخصية ، مثل الصدق من النفس كمثل الغذاء من الجسد • وأما الكذب فيسبب الازورار ، فالتشويه والضمور ، أو ليس الوفاء للعهد مبدأ استقطاب الحياة ، مبدأ تضامن بين الماضي والحاضر ؟ ان النفس تثبت بهذا التضامن كيانها في وجه عالم متحول المظاهر ، فتعوض عن واقعها المهدور « بسبب الوفاء » بنمو صاحبها شخصية ذات معالم • مثل النفس في وفائها للعهد كمثل الدغل في توقيف الرمل المنتشر فتحويله الى هضبة شامخة في صحراء عديمة الصوى• أوليس الوجود مبدأ فيض يرتقي على موجه النفس الى حيث تنبع الحياة ؟ •

هكذا يقوم نمو احياة الانسانية وازدهارها على الاخلاق الفطرية وهي ، أي الاخلاق ، من الشخصية بمثابة الهيكل العظمي من الجسد •

وأما ما بلغه الجاهليون في مضمار الاخلاق فيظهر في موقف هند من نصائح رسول الله :

« ولما أخذ الرسول البيعة على النساء ومن شروطها أن لا يسرقن ولا يزنين ، قالت هند : وهل تزني المرأة وتسرق يا رسول الله ؟ » •

وهناك معنى آخر للجاهلة ، وهو ضد العلم • المجهلة : المفازة لا اعلام بها ولا يهتدى فيها • ناقة مجهولة : غفلة لا سمة عليها • المجاهل •• الخ ••

وأما كيف تغلب معنى الجهالة كعدم معرفة على معناها كشجاعة تتحدى النتائج ، فقد يرجع الى موقف الجاهليين المتحير من لغز ما بعد الطبيعة • كان زيد بن عمر يقول في الجاهلية : « يا معشر

قريش ، لو اني أعلم أي الوجوه أحب الى الله لعبدته به ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحتيه » .

« واجتمعت قريش يوما في عيد لهم .. فخلص منهم أربعة نجيا . ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا .. قال أجل . وهم ورقة بن نوفل . فقال بعضهم لبعض : تعلموا ، والله ما قومكم على شيء .. يا قوم التمسوا فانكم والله ما انتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية ..

ومع ذلك فن التأملات الدينية في الجاهليةقد بلغت حد السمو:

أربا واحدا أم ألف رب
أدين اذا تقسمت الامور
ولكن أعبد الرحمن ربي
ليغفر ذنبي الرب الغفور
(زيد بن عمر)

وزيد هذا يقول في قصيدة أخرى :

الى الله أهدى مدحتي وثنائيا
وقولا رضيا لا يني الدهر باقيا
الى الملك الاعلى الذي ليس فوقه
اله ولا رب يكون موانيا
وقولا له أأنت سويت هذه
بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له أأنت رفعت هذه
بلا عمد ارفق اذا بك بانيا

وقا رسول الله في زيد : نعم الرجل فانه يبعث أمة واحدة •

ان آيـات ربنـا ثـاقبـات
لا يمـري فيهن الا الكفـور
خلـق الليـل والنهـار فكـل
مستبـين حسـابه مقـدور
(أمية بن أبي الصلت)

هذا ، وقد بلغ التأمل الديني عند بعض الجاهليين حد التنبؤ بما ورد في الاسلام :

« فكر عبد المطلب وقال : والله ان وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باساءته • ورفض في آخر عمره عبادة الاصنام ووحد الله • وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها » •

وكان أبو قيس حرمة رجلا قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء •• وتشير الآية الى ذلك :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن : الله »•

واليك بعضا من أقوال الجاهليين في استعمال كلمة « الله » :

كلوا الآن من رزق الاله ، وايسروا
فـان على الـرحمن ، رزقكم غدا
أمـا والـذي لا يعلـم الغيب غـيره
ويحيي العظـام البيض ، وهي رميم
(حاتم الطائي)

تلـك الموازين والرحمن أنزلهـا
رب البريـة بين النـاس مقياسـا
(امرؤ القيس)

فلا تكتمن الله مـــا في نفوسكـــم
ليخفى ، ومهمـــا يكتم الله يعلـم
يؤخر فيوضع في كتـــاب ، فيدخر
ليوم الحســـاب ، أو يعجل فينقم
(زهير بن أبي سلمى)

وأما الشرك ، فهاك مغزاه :

« كانت كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك هو لك تملكه وما ملك » .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

وأما الاوثان والاصنام فهي رموز ظهر فيها الشكل على المعنى حتى استقلت عن حكمة وجودها . ومسمياتها تدل على أنها أقرب ما تكون الى السماء الحسنى . كذلك « ود » يرمز الى المودة ، « وثام » يرمز الى الرحمة ، ومناة واللآت ، والعزي .. الخ ..

وهل كانت كلمة « الاسلام » مجهولة عند الجاهليين ؟.

« قدم على النبي أسقف نجران والعقب فعرض عليهما الاسلام ، فقالا له : انا كنا مسلمين قبلك » .

(تفسير الجلالين)

ولما نزلت الآية : ومن يتبع غير الاسلام دينا ، فقال تاليهود فنحن مسلمون ..

وورد في سيرة ابن هشام انه كان التامر يتردد على رجل مقيم في خيمة بالقرب من نجران حتى أسلم فوحد الله وعبده وجعـل يســأله عن شرائع الاســلام حتى اذافقه فيه جعـــل يسأله عن الاسم الاعظم .

قـد كان ذو القـرنين قبلي مسلما
ملكـا تـدين لـه الملوك وتحشـد
(تبع الحميري)

وصفوة القول ان لكل من العهدين ممثليه تتجسد فيهم أمانيه: وممثلو الجاهلية شعراؤها ، كما يمثل الاسلام فقهاؤه • واذا رمـز « الدراويش » الى زهد في الحياة ، فان ذؤبان العرب يدلون على ما يكمن في العقلية الجاهلية من حرص على الحرية •

أتى قوم رسول الله فسألوه عن أشعر الناس • فقال : أتتو حسان ، فقال « ذو القروح » يعني امرؤ القيس • قال رسول الله : « صدق ، ذاك رجل مـذكور في الـدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها• يجيء يوم القيامة ومعه لواء الشعراء الى النار »• فيروى ان كلا من لبيد وحسان بن ثابت قال : ليت هذه المقالة في وأنا المدهدى في النار •

ونيتشه فيلسوف الحياة في الحضارة المعاصرة يعبر على لسان الشباب في كل عهد عن الجاهلية بما يلي :

« أتوسل اليكم أيها الاخوة أن تحتفظوا للارض باخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها ، انهم يعللونكم بالمحال فيدسون لكم السم ، سواء أجهلوا أم عرفوا بما يعملون ، أولئك هم المزدرون للحياة ، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون ، لقد تعبت الارض منهم ، فليقلعوا عنها •

لقد كانت الروح تنظر،فيما مضى ، الى الجسد نظرة الاحتقار، فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار ،لقدكانت الروح تتمنى الجسد ناحلا قبيحا جائعا متوهمة انها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الارض التي يدب عليها • وما كانت تلك الروح الا على

مثال ما تشتهي للجسد ناحلة قبيحة جائعة ، تتوهم ان أقصى لذاتها انما يكمن في قسوتها وارغامها .

أفليست روحكم ، أيها الاخوة ، مثل هذه الروح ؟ أفما تعلن لكم حياتكم عنها ، انها مسكنة وقذارة وانها غرور يسترعي الاشفاق » ؟

ونحن ، مع ذلك ، لا ننسى ما أضفت شخصية الرسول على العرب من بهاء ، فاليها يرجع أمرتنسيق حياتهم وتوجيهها نحو مثل أعلى مشترك وأمر قيام العرب برسالة نحو العالم تظهر في الآيات التالية :

« وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين،وما خلقناهما الا بالحق » ، « لقد عرضنا الامانة على السموات والارض فأبين ان يحملناها وحملها الانسان » ، « هو الذي جعلكم خلائف في الارض » .. الخ ..

مشاكلنا الكبرى

ان مشاكلنا القومية الكبرى ترجع مبدئيا الى عاملين أساسيين : موقع بلادنا في الدنيا ، وما حملنا التاريخ من أعباء بل ترجع الى ما نتج عن هذا وذاك من فتور في الهمة واختلاف في الموقف ازاء المصائب العامة .

اما المشاكل التي ترجع الى موقع بلادنا فهي كوننا بين آسيا واوربا ، بين قارة نفوسها مليار نسمة واخرى ينوف عدد سكانها على خمسمائة مليون نسمة . لا سيما ان الاولى تمد العالم بالمواد الاولية والثانية توزع منتوجها الصناعي على جميع الامم ، بحيث يشتد بينهما التبادل التجاري والعلاقات الاخرى . وهذا التبادل ليس له من وسائل غير طرق بلادنا وفضلا عن ذلك فان بلادنا تشرف من الشرق على المحيط الهندي ومن الغرب على المحيط الاطلسي وتحيط بالبحر المتوسط من كيليكيا الى جبل طارق . ونحن نقف بحكم موقع بلادنا وجها لوجه مع شعوب اميركا من جهة ومع شعوب آسية من جهة ثانية . ونقف بحكم هذا الموقع موقف المتاخم لكل من ايران وتركيا ودول البحر المتوسط الاخرى . وبناء على موقعنا هذا ، وبناء على امتداد وطننا من خليج البصرة الى جبل طارق ومن جبال طوروس الى الحبشة ، تتشعب العلاقة بيننا وبين الامم المجاورة لنا وغير المجاورة تشعبا نمس به الامم بنسبة تقدمها في مضمار الحضارة واذا ما اضيف الى ذلك تشعب مصالح السكسون

في الدنيا وما كان لهذا التشعب من علاقات مع بلادنا ادركنا حراجة مركزنا .

فمن متاخمتنا لايران نتجت بينها وبيننا مشكلة شط العرب وعربستان ، تلك المشكلة التي فرض الحلفاء على العراق حلها لمصلحة خصومنا وكان هذا الحل قد فرض دون ان تثير الحكومة العراقية اية ضجة . وذلك لئلا ينتبه العرب لما يحيط بهم من أخطار جسيمة .

ومن متاخمتنا لتركيا نتجت بينها وبيننا مشكلة كيليكيا ولواء اسكندرون . والمشكلتان قد حلتا على حسابنا من قبل الحلفاء ومنهم فرنسا بصورة خاصة . ان اقتطاع كليكيا منا حرم بلادنا من تخومها الطبيعية . وان اغتصاب لواء الاسكندرون منا جعل في وطننا ثغرة تهددنا منها الغزوات من الشمال .

أما كيف تآمرت فرنسا علينا ، وهي الدولة المنتدبة على سوريا فتخلت لتركيا عن كيليكيا ثم عن لواء اسكندرون ، تينك المنطقتين العظيمتين بخصبهما وموقعهما . انا نجد مفتاح ذلك السر في قول مأثور ادلى به للصحفيين الجنرال ويفاند ، احد المفوضين السامين السابقين على سوريا ولبنان في عهد الانتداب مفصحا بهذا القول عن اغراض السياسة الفرنسية في هذا الشأن وهو : « ان وجود تركيا قوية على حدود بلاد العرب يخفف من حماسهم ويعرقل تطورهم » ولما كان ويغاند يدلي بهذا القول كجواب القاه عليه الصحفيون: « كيف تخاذلت فرنسا القوية امام تركيا » وكانت لم تختبر بعد انهيارها امام الزحف الالمان بل كانت تحمل هالة مجد انتصارها على الالمان سنة ١٩١٨ . لمان كان يدلي به كان احد المدرسين الفرنسيين باللواء يفسر في الصف لتلاميذ العرب مغزى اتفاقية

جنيف بين فرنسا وتركيا بانها قبر دفن فيـــه حلم الامبراطورية العربية •

ولما تظاهرت فرنسا بالاختلاف بينها وبين الاتراك على كيليكيا اثناء حرب مصطفى كمال عرض عليها فيصل الاول ملك ســـوريا اذ ذاك المساعدة العسكرية من اجل الدفاع عن اسوار البلاد العربية لكنها وقفت من هذا العرض موقفها من عرضنا من اجل المحافظـــة على حصن بلاد العرب الشمالي : اسكندرون • وكانت فرنسا تقف هذا الموقف من جميع قضايانا القومية : من استقلال مصر وثورة عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار الاسباني • حتى لقد حملهـــا التعسف على التدخل بالقوة المسلحة الى جانب الاسبان الطغاة ضد بطل العرب • وكان غوستاف لوبون احد اصحاب الرأي في فرنسا قد عبر عن مخاوف حكومته عند دخول العراق في جمعية الامم بقوله : « سوف يكون لاستقلال العراق من الاهمية في القرن العشرين اكثر مما كان لبروسيا في القرن التاسع عشر » فحذر بهذا القـــول حكومته وحكومات اوربا من العواقب المترتبة على ذلك •

أما الاسباب التي تدعو فرنسا لاتخاذ هذا الموقف من قضايانا فهي اولا • خوفها من الوحدة العربية ، ثانيا حرصها على البقاء في المغرب العربي : تونس والجزائر ومراكش خوف وحرص ، كلاهما اعمى بصيرتها في السياسة العالمية •

ان مرامي السياسة الفرنسية في احتـلال لبنان وســـوريا لم تكن لنشر الثقافة كما ادعت • وهل من احد حارب ثقافة فرنسا الصحيحة في سوريا اكثر من محاربة ضباط استخباراتها لها ؟! بل كان قصدها اتخاذ هذا القطر من وطننا كقاعدة تحاول منها منـــع تطورنا ودرء خطر هذا التطور في جزيرة العرب •

والاختلاف على مراكش بيننا وبين اسبانيا لم يزل قائما على اشده رغم ماقطعه ، رئيس تلك الدولة ، من عهود للعرب الذين ثبت سلطانه في المملكة على حرابهم .

وقد تفوق هذه المشاكل جميعها مشكلة القواعد الحربية لبريطانيا في بلادنا ومن وراء هذه الدولة امريكا والعالم السكسوني اجمع .

وهاكم ما قاله احد السياسيين الامريكان عن اهمية موقع بلاد العرب : انالمعركة الفاصلة بهذا النزاع ستكون في بلادالعرب. ومن ينتصر في هذه المعركة يكون قد ضمن لنفسه النصر طيلة المرحلة التاريخية الراهنة . » وبعد ما تقدم أمن العجب ان استكلب الاجانب على التدخل في شؤوننا وعرقلة تطورنا ؟

لقد بلغ هذا التدخل في المدن في افساد الناشئة حتى حملنا على القول الآتي : « أمس العرب فريقين : فريق أخرس أصم وهو حزب العروبة ، وفريق يسمع ويتكلم وهو حزب الحلفاء وعندما تنحل عقدة لسان احد البكم يلقي الحلفاء شصهم فيصطادونه ويحشرونه في زمرة اعوانهم » .

وكثير ما كان نفوذ الدول الاجنبية يشتبك في تحوير أوضاعنا الى حد أصبح من المتعسر معه على ذي البصيرة تعيين الدولة المسؤولة عن الاساءة مما حملنا على القول ايضا بأن : « مثل البلاد كمثل من ولد في محل الشبهة : فمن الصعب على الناس تعيين هوية المسؤول عن الجريمة » .

ويتساءل المرء كيف كان انتهى مصير العرب لو لم توجه العناية الالهية الاوروبيين نحو امريكا واستراليا فيتحول عنهم الخطر نحو الهنود الحمر ، وكيف تسنى للاجانب التدخل في شؤوننا الى الحد الذي شلوا به فعاليتنا ؟

حين احتل الاجانب بلادنا وجدوا من يتا مر معهم علينـــا من الدخلاء على بيئتنا وما ان امتلكوا زمام الامر حتى استبدلوااعوانهم بالوجهاء ، وعندئذ طغت على البلاد زمرة من السفلة : من السياسيين المحترفين ومن التجار المحتكرين ومن حملة الشهادات المزورين • وعندئذ هان على الطغاة ان يجعلوا من الخونة قدوة يطمسون بهـــم على الناس الفارق بين الفضيلة والرذيلة وعندئذ هانعليهمان يجعلوا من الذين يكيدون (قوامـــة) يقتنصون بواسطتهـــا المغفلين من ابناء الوطن فيدرجونهم في شباكهم بين المتآمرين •

ان ما سهل على الاجنبي اقتناص الناشئة هو وحاجتهـــا الى المعيشة ، فليس من مخرج للمتعلم غير ابواب (الحكومة) ما دامت الزراعة والصناعة عندنا على هذا المستوى من الانحطاط • الا يلجأ كل صاحب شهادة ، آخر الامر الى وظيفة في جهاز الدولة ، ومن يأكل من خبز السلطان يضرب بسيفه » كما يقول المثل العامي • وتعبيرا عن هذا الموقف كنت اجبت على سؤال القاه على احدتلاميذي في تجهيز حماه عن سبب القلق في نفوس الشباب فقلت : « ان ذلك يرجع الى كون قلوبكم مع الجمهور وعقلولكم بباب السرايا » •

الكن لو لم يهمل اولياء التلاميذ مصير ابنائهم مااستطاع الاجنبي الهيمنة عليهم بهذه السهولة ، انه لفي هذا الاهمال يكمن كلالخطر على مصير الامة وعلى مستقبل ابنائها معا • فاذا كان الاجنبي قد سلب الامة جهود المتعلمين في حل مشاكل الحياة العامة ، فانه لم يسبب العقم في نفوسهم الا بعد ان اجف في قلوبهم ينابيع المسرة • وكيف تنمو الشخصية اذا لم يتبادل صاحبها العاطفة مع الآخرين ؟ كيف تنمو اذا عقد صاحبها النية على الكيد لاماني الامة ؟ •

ان المكيدة لم تكن لتخفي حتى على تلاميذ المدرسة ، وهاك رأي احدهم في هذا الامر ، وجهت مرة لتلاميذي بتجهيز حمـــاه

السؤال التالي : « ما الداعي الى توزيع تلاميذ المدرسة على الاندية » وكان عدد النوادي في تلك المدينة يتعدى العشرين ، فأجاب احدهم بهذا القول : « لكي نجحش عقولنا » ولما سألته « ماذا يفيدكم هـذا التجحيش » اجاب : « الحصول على الشهادة ثم على الوظيفة بلاتعب» « فما هي فائدة رئيس النادي اذا » وكان رؤساء النوادي من اعيان البلد، قال « حل مشاكل الناس في السرايا » .

هكذا يستعين الاجنبي بالهيئات الحزبية على اقتناص الاحداث من بين المتعلمين . ونحن نذكر هنا على سبيل المثال الطريقة التي يسلكها اهل الجزيرة السورية في التعرف على اوكار الجرذان : يختزن الجرذ في الصيف مؤونة الشتاء من الحنطة وعندما يحاول وشاب الناس مقاسمته ذخيرته في الايام الصعبة يصطادونه ثم يجعلون في خيشومة قصبة بشكل عرضاني ثم يطلقونه مقتفين اثره ، فكلما حاول هذا اليائس دخول احد الاوكار عاقتة القصبة عن الدخول في حين قد دل بذلك على مستودع الحنطة .

أما ما أوحي الينا هذا الشبه بين الجرذ والجاسوس على قومه هو استعمال الكلمتين على سبيل الترادف في احدى اللغات، الانكليزية.

وبعد ذلك امن العجب ان يقف تطورنا على حدود التفاعل بين الجمهور والعالم دون ان يكون للفرد من شأن في هـذا التطور ؟ انا قد ذكرنا بمناسبة مماثلة العقم الذي اعترى العرب . وها نحن نعيد القول : بأن الاله ، وان كان يشرق شمسه حتى على الكلاب لكن ذاته لاتتجلى الاللنفوس الكريمة .

وهل بقي الامر عند هذا الحد . الا يرجع تفشي السفاهة في البلاد الى محاولة تواري هؤلاء الرؤساء عما يعانونه من عذاب الوجدان. مثل النفس في آثامها كمثل المرأة من قذارة سحنتها كلتاهما تتجنب مواجهة البشاعة ،تعرض المرأة عن رؤية محاسنها في المرآة عنـد

قيامها بما يسيء الى هذه المحاسن ، وكذلك تتوارى النفس عن ذاتها ومصدر فضائلها اذا تشوهت بارتكابها الآثام .

وبهذه المناسبة ، مناسبة اهتمام الدول بمصيرنا نذكر رأيا كنا ادلينا به كجواب على احد تلاميذنا ، وكان التلميذ هجينا من أب عربي وام تركية ، وكان يتوخى من سؤاله المفاخرة بخؤلته على بني عمومته ، ، والسؤال هو : « كيف استقل الاتراك وكانوا قد خاضوا الحرب سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ ضد الحلفاء ولم نستقل نحن مع اننا دخلناها جنبا الى جنب مع الحلفاء المنتصرين . فأجبت على سؤاله بقولي : « انك تجد الجواب على السؤال في التاريخ اذ القيت نظرة شاملة على حوادثه منذ مطلع القرن التاسع عشر الى الان : ان المانيا لم تفتأ تحاول منذ ذلك الحين جمع شملها وكلما قامت بهذه المحاولة وقفت دول اوروبا في وجهها في حين كانت هذه الدول تمد الكبيرة منها الصغيرة لاستكمال شروط استقلالها متخذة منها حلقات تشد بها الخناق على المانيا . اما السبب في هذا الموقف فهو ان المانيا لديها من العدد والامكانية بحيث يصبح اتحادها خطر على توازن قوى العالم » .

واذا كانت دول اوروبا تقف هذا الموقف من المانيا التي هي وانكلتره وامريكا من ذات العرق الجرماني ومن ذات المذهب البروتستانتي ، وكلها يخضع للنظام الرأسمالي ، فماذا يكون موقف هذه الدول منا . لاسيما ان ذكريات اجدادنا في اوروبا لم تزل ماثلة في اذهان العالم ، ذكريات عبر عنها احد فلاسفة التاريخ في هذا العصر ، شبنجلر ، بقوله « لو انتصر العرب في موقعة بواتييه لكانت اوروبا اليوم مزدانة بالمأذن ولكان صوت (الله اكبر) يدوي في جميع ارجاء الغرب . واذا نحن مثلنا للعرب بمارد في قمقم وقلنا : مادام المارد في مكمنه يتصرف في مصيره حتى الطفل ، بينما انه اذا اطلع

وانتصب غير مصير العالم • اذا قلنا هذا القول لم نكن نعني من القمقم التقاليد البالية والعقلية الرجعية التي تحيق بنا وحسب ، بل كنا نقصد ايضا موقف الدول من قضيتنا •

اما المشاكل التي ترجع الى مجرى حوادث تاريخنا فهي اولا : الاختلاف في الدين والمذهب بين ابناء امتنا ، ثانيا : الاقليات العرقية المبعثرة هنا وهناك ، ثالثا واخيرا ، مشكلة خمول الجمهور وضعف الشخصية •

اننا ندين بمجدنا القومي للاسلام ، ندين به لمحمد نبي الاسلام وهل يجوز لنا ان نفصل بطل الامة العربية عن رسول الاسلام الى العالم في شخص محمد •

فلما اطل محمد بن عبد الله بمولده على العالم كان ذلك عام الفيل الذي هو اشد الاعوام بؤسا على العرب • ان ذكرى محنة احتلال الاحباش هذه لجزيرة العرب ظلت ماثلة في نفس بني يعرب قاطبة • واذا كان نبي الاسلام يردد لقومه بانه سيجعلهم اصحاب كنوز قيصر وكسرى ، كان يشير بهذا الوعد الى الاسباب البعيدة التي دفعت بالاحباش لاحتلال قلب بلاد العرب •

وهل اخلفت بالوعد الدولة التي شيدها محمد • الم تجمع شمل العرب وتطهر بلادهم من كل دخيل معتد ؟ او لم تتعد حدود انصافهم هذه الى لم شتات العالم تحت راية واحدة الا وهي راية الحق ؟

ان العالم الممتد من سد الصين الى بحر الظلمات قد خضع في ذلك العهد لشريعة واحدة هي شريعة محمد ، ونهل الناس اذ ذاك من ثقافة واحدة هي الثقافة المتبلورة معانيها في كلمات اللغة العربية• واذ ذاك انتقل العرب من عهد بطولة الفرد في الجاهلية الى عهد بطولة امة شعارها الجهاد ورسالتها خلق عالم تتحقق فيه اماني

الانسان من اخوة وعدالة • واذا اتخذ محمد رايته العقاب ووسيلة رسالته الحسام فان الاماني لاتتحقق الا بالقوة ، بقوة يحسم بهـــا المرء بين عهدين : عهد الطغيان وعهد الحق •

ولكن الاسلام يتضمن مع ذلك بذور التفرقة التي تنجم عن تفسير الايات بحسب عبقرية الافراد والامم المختلفة •

كان المتعارف عليه بين الناس في الجاهلية هو ان الاسلام دين التوحيد او ما نعني به نحن المعاصرين الاستسلام لصوت الحق الداوي في الوجدان والداعي الى المكارم والناهي عن الموبقات • والاســـلام في رأي العرب يبدأ مع آدم الذي هو ابو البشر • ومبادىء الاسلام تراث تتناقله الاجيال منذ فجر الانسانية • وانما شأن الانبياء استجلاء ما طمست عليه التقاليد الباليـــة من حقائق خالدة ، شأنهم كشأن البراكين حين تعيد الى الارض سمتها التي طمست معالمها بتأثير عوامل التحات • واذا كانت البراكين تختلف فوهاتها باختلاف قشرة الارض حيث وقع الانفجار فانها واحـــد من حيث المصدر • وكذلك هي الحقيقة الانسانية : انها خالدة وان اختلفت عباراتها باختلاف الاقوام والازمان •

اذا فالاختلاف بين العرب لم يكن على كلمة اسلام بل كان على نبوة محمد • « قدم على النبي اسقف انجران والعاقب فعرض عليهما الاسلام فقالا له : انا كنا مسلمين قبلك » من تفسير الجلالين للقرآن الكريم : « لما نزلت الاية : ومن يبتغ غير الاسلام دينا ، فقالت اليهود فنحن مسلمون » •

ولقد كان لتدخل الاجنبي الاثر في اذكاء روح التفرقة اذ انهم دفعوا باعوانهم من المعارضين لمحمد في المدينة الى انشاء جامع غـير جامعه بقصد الحيلولة دون اتحاد العرب تحت راية بطلهم • ولقد

سبق للروم والفرس ان حالوا دون جمع العرب تحت راية شاعرهم الملك الضليل امرىء القيس .

لكن العروبة المتصاعدة موجتها تحت راية الاسلام لم تكن لتأبه للمتخلفين عن المسير . الا ان من ينفصل عن موكب الجماعة تضمر فيه الحياة ويضعف تحسسه بالكرامة بحيث يصبح على اخوانه بالمصير عالة .

وكان الاختلاف على من هو احق بان يكون خليفة لمحمد ابلغ اثرا في تفرقة كلمة العرب مما كان على رسالته . وكيف لا . هل يقبل الذهن العربي بالمساومة ام يذعن للامر الواقع اذا لم يقره الوجدان ، فلما توفي الرسول تمخض موقف العرب من الخلافة عن ثلاثة اتجاهات : اتجاه تمثلت فيه سلطة الحكم مستعينا بموجة الاسلام في انتشارها وفي نزعة النفوس الخائرة على الاستكانة ، واتجاه تبلور فيه الميل الى التأمل متعففا بعض التعفف عن امور الدنيا، اتجاه تجسدت نزعاته في اهل البيت اصحاب المشيخة في الجاهلية بحيث حرمت الامة العربية من معظم عناصر الفكر فيها ، واتجاه بعث فيه روح الجاهلية متحلية بالاسلام ومتحفزة للاستشهاد في سبيل ما عقدت عليه النفس من ايمان كالخوارج .

ولئن كان الاصطدام بين الخوارج وبين المدافعين عن الحكم حرصا على عزة سلطان الاسلام قد قدم اروع الامثولات في البطولة في تاريخ العالم فان هذا الاصطدام هو من الاسباب الاساسية التي استنفذت الدم العربي مشيد مجد العرب وناشر راية الاسلام بين الانام . وما ان نفذ الدم العربي في الفتوحات وفي الاختلاف على مشروعية الحكم حتى تجرأ هجين ، وهو المأمون على انتهاك حرمة بلاد العرب واحتلال عاصمة بلادهم بغداد بجيش من خؤولته صعاليك ايران . وقام هجين آخر ، هو المعتصم ،ينقل العاصمة

من بغداد الى سامراء لكيما يحرر بني خؤولته ، اوغاد تركستان ، من رعاية العرب وعندئذ اخذ العرب يتقلصون عن المدن آوين الى الايارف • وعندئذ اخذ الدخلاء والهجناء والرعاع يطغون على سطح الحياة • وما ان طغى الاغيار على البيئة العربية حتى زاغت قيم الحياة الاصلية عن محورها فبدا الميل سويا •

واذا كان الاسلام قد ازكي الشوق الى المثل الاعلى فان هذا الازكاء في غالب الاحيان على حساب الطبيعة •ومتى اصبح الجسد هزيلا ضمرت فيه الحياة والت الشخصية الى الانهدام • ولما انفصلت الميول الطبيعية عن الصبوة الى المثل الاعلى تردى الناس الى النفاق •

اما مشكلة التشتت في الرأي حول القضايا العامة فترجع الى موقف زمرة المتعلمين موقف المغفل من الحضارة الاوروبية ومن ثقافتنا القومية ، موقف من تنقصه الشكيمة في استجلاء معالم وجهتي الحياة الانسانية • فلما استيقظنا على تباشير الحضارة كان الاجنبي قد احتل بلادنا وكان قد اخذ يشرف على التعليم في مدارسنا • ولئلا نتجه بحكم طبيعة العمر نحو الجاهلية التي هي عهد الفطرة فنجدد نسغ حياتنا ونلتقي مع روح الحضارة الحديثة بحيث تصبح نهضتنا على ينبوع الثقافة المتقدم من كل دين ونعرة (العرب قبل موسى وعيسى ومحمد) ؟ اخذ الاجنبي يدفع بالسفلة الى تشويه معالم عهدنا الذهبي، منهل ثقافتنا • لم يكن ليخفى على الاجنبي ان نهضة الامم تقوم على البعث أي على العودة الى العهد الذي نشأت فيه معالم حياة الامة نشأة طبيعية •ألم تقم نهضات الامم الحديثة بالعودة الى العهد الذي سبق المسيحية بالظهور ، الم تقم على استبدال اللغة الام باللاتينية في غربي اوروبا واليونانية في شرقها في كل من الاوطان او لم تقم مناقب الاجداد في كل من الاقوام مقام الكتاب المقدس (التوراة) •

كان الاجنبي يتوقع ما ستؤول اليه نهضتنا من استقلال واتحاد •

وكان يستبق الحوادث فيحاول تضليل الجمهور عن امانيه بضجة مصطنعة وذلك بدفع الاوباش الى اثارة نعرات اقليمة ليس لها من محل في الحقيقة كجمعية (مصر الفتاة) في مصر وجمعية (فينيقية الجديدة) في لبنان و (الكتلة الوطنية) في سوريا الخ ... حتى انه لم يتورع عن استثمار المغفلين في حلب ضد دمشق التي هي اليوم عاصمة العروبة . فكأن العروبة قد اندثرت، كما اندثرت روما القديمة . فلكل قوميته كما كان لكل من فرنسا واسبانيا وايطاليا قوميتها . ياله من تشبث عقيم ورأي سخيف وهل تتكون الامة بقرار من المندوب السامي ؟ اتكوين الامم مصطنع الى هذا الحد ؟ ومن حسن الحظ ان المرحلة التاريخية الراهنة لم تبق للنزعة الاقليمية من محل في التفكير السياسي . حتى لقد أصبحت القومية ، بالمعنى الضيق ، آخذة بالاضمحلال . أفلم تظهر على مسرح العالم تكتلات سياسية على مقياس اوسع من حدود الوطن ؟ هاكم مثلا تكتل شعوب الرابطة السلافية : روسيا ، بولونيا ، بلغاريا الخ ... وهاكم رابطة الشعوب البريطانية : انكلترة ، كندا ، الولايات المتحدة الخ ... وها كم رابطة الشعوب اللاتينية الرابطة التي أخذت تظهر في التقارب بين فرنسا وايطاليا بصورة خاصة .

وهل بقي الاجنبي عند حد اثارة النزعات الاقليمية وحمل الاوباش على الدعوة لها ؟ او لم يحاول ازكاء النزعات الطائفية أيضا؟ لم تزل الانتخابات النيابية عندنا قائمة على المبدأ الديني في حين أنها تقوم على اسس اقتصادية اجتماعية في جميع انحاء العالم واي دولة معاصرة تتخلى عن شأنها في ادارة مواطنيها الى هيئات مذهبية خاصة فتحدث ثغرات في دستور بلادها ؟ اليس اقرار الحكومة لمبدأ المحاكم الطائفية امتدادا للنفوذ الاجنبي ؟ والاغرب من ذلك ان رجال الحكم يعلنون بوقاحة تشجيع المدارس الخاصة . فكأن وضع لبنان المتردي في الطائفية وما آل اليه هذا الميل في انحدار نحو الانانية المادية لم

يكفيا كعبرة لنا من اظهار أهداف المحاولة لابقاء البلاد في حالة تفرقة كالفسيفساء .

اليس تشجيع المدارس الخاصة خرقا للدستور ؟ وهل يتم الانسجام بين الدولة والجمهور اذا كانت برامج التعليم لا تستوحى منه ؟

لدينا ثلاث وسائل ندرأ بها عنا المساوئ المتقدمة : العلم والصناعة اللذين تمدنا بهما الحضارة الحديثة وتراث اجدادنا . اما تراثنا فيؤلف ، خلو من الدخيل عليه وما يعتريه من تشويه ، بين النفوس في صبوتها الى المثل الاعلى . واي عهد من تاريخنا ابلج فيه المثل الاعلى عن طبيعة امتنا كقرارة لهاوامنية كما ابلج فيه المثل الاعلى عن طبيعة امتنا كقرارة لها وامنية كما ابلج في الجاهلية . ونحن بالعودة الى جاهليتنا ، نلتقي مع اصول الثقافة الحديثة ، الاصول التي تقوم على الاعتقاد بان النفس تنطوي على مقوماتها ، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة ووجدان ينير لها سبيل الفضيلة . وفضلا عن ذلك اننا لنتحاشى بهذه العودة ما اورثنا التاريخ من حزازات بين المذاهب والاديان .

اما العلم فيوفق بين الاذهان توفيقا ينتج عنه التجانس والانسجام بين الناس رغم الاختلاف بين الاقاليم والتقاليد . افلا تؤلف النظرية الهندسية بين عقول التلاميذ لدى وعيهم حقيقتها ؟ واما الصناعة فهي ايضا تؤلف بين الجماعة بالمصلحة وتدعم انسجام الاذهان في ميلها الى القيام بالاعمال المشتركة .

واخيرا فمشكلة ضعف الشخصية ، في بلادنا ، التي هي اهم المشاكل كلها . فما قيمة الرأي العام اذا كان لم يتجسد بهيئة سياسية

معينة او ببطل قومي يحول الرأي العام من شعور الى عمل ؟ ربما كان شعور الجمهور العربي بأمانيه القومية اقوى مما هو عند غيرنا من الامم • ولكن ما نختلف به عن سوانا هو فقدان القيادة لا في السياسة وحسب بل في جميع مظاهر الحياة العامة ايضا • فأينما اتجهت الانظار اثير القرف من حقارة المنظر سواء في الادب او في السياسة • مما حملنا على القول بأن القادة عندنا اشبه بالدجاج الذي يبحش في المزبلة فيلقى منها على رأسه ظانا انه يزداد بذلك حسنا •

ونظرة على تطور اوضاعنا خلال السنين الاخيرة تكشف لنا عن اندحار محترفي السياسة والمتأدبين من كتابنا امام موجة الجمهور المتصاعدة • فاذا لم تعرض الا قاعة سينمائية واحدة بدمشق من ثماني قاعات من الدرجة الاولى ، الافلام العربية ايرجع ذلك الى تقصير الجمهور بالذوق ام الى تخلف من يدعى تمثيل هذا الذوق عن ركب الحضارة • وبهذه المناسبة ، مناسبة سرعة تفتح الاجيال للحياة المستجدة ، اتذكر انني كنت يوما في احدى قاعات السينما بحلب • وكان بالقرب مني احد اصحاب المجلات وبجانبه ابنه الذي لايتعدى الرابعة عشرة من العمر وكان كلاهما يستعينان بالترجمة العربية على فهم الفيلم • ولكن الولد هو الذي كان يفسر ما قصر عن فهمه الاب من سير الحوادث •

وكيف كان التطور بهذه السرعة حتى بدا تباعد الاجيال الى هذا الحد فذلك ان نهضتنا كانت على عكس النهضة الاوروبية ففي الامم الحديثة كان القادة يشقون الطريق للجمهور • وكان الجمهور يهتدي بهديهم في سيره نحو الاهداف المشتركة • لكن التطور عندنا بدأ باتصال الجمهور مع المرحلة التاريخية وعلى قدر ما كان الاتصال خلوا من التقاليد كانت عجلة التطور اسرع • اي كانت نفوس الاحداث

تشرئب الى تيارات العصر • وكانت هذه التيارات تدرجهم فيهـــا وتوجههم في وجهتها •

ولكن الحياة في نشأتها تحتاج الى قدوة تستعين بها على بنـاء كيانها شخصية ذات معالم معينة • واين تجد الناشئة العربية قدوتها ؟ افي رجال السياسة ، وحياتهم تنقلب من النقيض الى النقيض بحسب ماتقتضيه ظروف السياسة الدولية ، ام في رجال الادب ، واقلامهم وقف على خدمة دوائر الاستعلامات الاجنبية • واذا قلنا ان مثـــل السياسة الدولية في بلادنا كمثل المدحلة التي تطمس على الحصـــاة البارزة ، كنا نشير بذلك الى حدسنا هذا في الامور العامة •

وهل تنمو الشخصية اذا انفصمت عرى المعارف عن الاعمـــال في نفس صاحبها ؟ اليست المعرفة من العمل كالجذع من الجـــذور في الشجرة ؟ كلتا الوجهتين تنموان متناسبتين معا : العمـل يستجلي المعرفة وهو معيار صدقها ، والمعرفة تلقي ضوءها على العمل فتنير له السبيل ، كما ينتصب الجذع شاهقا على قدر ما تكون جذوره ممتدة راسخة ، ولكن الحال عندنا بلغ فيه استقلال الرأي عما يترتب عليه من الاعمال حد القول بان الآراء تتجاوب في القحوف دون اثر في النفوس ، تجاوب الاصداء في الكهوف •

يصف احد الشعراء الشخصية بهذا القول : من هو الرجـــل العظيم ؟ هو ذاك الذي عقد النية على فكرة في صغره ثم حققها في كبره وهل تتوفر شروط الاستقرار في بيئتنا او في مدارسنا كيما تنمو الشخصية بنجوه عما يعوقها من اراجيف طارئة ؟ في سنة ١٩٤٥ ، عندما عدت الى التعليم ، كان الدوام خمسة واربعين يوما فقط خـلال العـــام الدراسي • ومع ذلك كان النجاح في الامتحان بنسبة عظيمة •وهل تنمو الشجرة اذا قلقلت جذورها ؟!

ان الجسد هو رمز الشخصية • فهو ذو نمو متواصل في الاحياء الراقية حيث تتفرغ الجرثومة عن الخلايا فتأتلف الخلايا في الانسجة وتنسجم الانسجة في الاجهزة • تفرع يبلغ مداه حتى الخمسين سنة عند الانسان ، تاج الخلقية ، بينما هو مبعثر في الاحياء البدائية ، مداه لايتعدى هنيهات متضائلة بحيث تلبس الحياة بالبيئة فتخضع بهذا الالتباس لاراجيفها • وكذلك الشخصية تحتمل كل الدرجات من خضوع صاحبها للنزوات والعادات الى تنسيق مظاهر الحياة وترتيبها امادا طويلة •

ولكن اذا كانت العناية قد أخذت على عهدتها امر انشاء الجسد، فان الشخصية يتم انشاؤها باشتراك صاحبها الفرد مع المجتمع • وهل يقوم مجتمعنا بهذه الوظيفة ؟ أليس ديدن موظفي الدولة سلب الثقة من قلب المواطنين بالحق والعدالة ؟ فما حل المشاكل بالالتماس، اذا لم يكن نكران مبدأ القانون والكفاءة الشخصية •

« مثل الحياة كمثل الماء ، فاذا ركد الماء يغور في جوف الارض او يستنقع فتغيث فيه الديدان ، واذا جرى اصتفى على مجراه حلة من العشب والزهر ، وكذلك الحياة تغور في صاحبها الانسان اذا تردد وتملكت منه الحيرة ويصبح عندئذ بين الجدب والانانية •

ولكنه اذا عقد العزم على العلى واتخذ له هدفا اسمى تفتحت نفسه عن مكنوناتها » •

« ان الاهداف تثير القوى الكامنة في الحياة وتحفزها بهمة متزايدة ، وتزايدها يتبع مرتبة رفعتها وصدق تعبيرها عما تتمخض به النفس من امنية ••• ولكن تأثير الهدف في النفس يزداد ايضا مع مدى اشتراك الجماعة فيه كأمنية ، وتعبيرا عن تأثير هذا الاشتراك فيه ، قيل ان الحياة كالنار تشتد ذكوتها بانتشارها ••• واي هدف

يبعث بخيال أفسح مما تبعثه العروبة في نفوسنا كعرب • فان نلق نظرة على امتنا عبر الزمن نرى تاريخها يرتقي الى اصول الانسانية • وان نسرح الطرف في العالم نرى بلادنا فيه بمثابة القلب من الجسد ••• واى هدف تلتقي فيه اماني العرب كما تلتقى في استقلال العروبة بالمصير عن كل دخيل • انه على الاستقلال ليتوقف انطلاق الخيال وازدهار الحياة كشخصية ذات معالم معينة •

* * *

من

منشورات دار اليقظة العربية بدمشق

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٦٠٠	الأم	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل أيوب
٣٥٠	تشيخوف المؤلفات الكاملة	انطوان تشيخوف	الدكتور فؤاد وسهيل أيوب
٣٥٠	تولستوي	ستيفان زفايج	الدكتور فؤاد أيوب
٣٥٠	روائع من الادب الالماني	شللر وتوماس مان	الدكتور فؤاد أيوب
٣٥٠	نيتوتشكا	دستويفسكي	الاستاذ سامي الدروبي
٣٥٠	قوي كالموت	جي ده موباسان	الاستاذ ابراهيم الحلو
١٥٠٠	الاخوة كرامازوف ١ ـ ٢	دستويفسكي	لجنة الترجمة
٥٠٠	الساقطون	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل ايوب
٤٥٠	عقل وعاطفة	جين اوستن	الاستاذ رضا حواري
٣٥٠	مراسلات بين جوركي وتشيخوف	جوركي وتشيخوف	جلال فاروق الشريف
٣٥٠	ابنة الضابط	بوشكين	الاستاذ سامي الدروبي
٣٠٠	حياة صاخبة	جي ده موباسان	الاستاذ ابراهيم الحلو
٢٥٠	حب وحرب	رومان رولان	الدكتور فؤاد أيوب
١٢٠٠	الجريمة والعقاب ١ ـ ٢	دستويفسكي	لجنة الترجمة
٤٥٠	بين الناس	مكسيم جوركي	الاستاذ ليان ديراني
٧٠٠	الساعة الخامسة والعشرون	ك . جيؤرجيو	لجنة الترجمة
٤٥٠	النفوس الميتة	نيقولاس جوجول	الاستاذان حمصي وبنا
٣٥٠	مرتفعات ويذرنج	اميلي برونتي	لجنة الترجمة
٣٥٠	روائع من الادب السوفييتي	نخبة من الكتاب	الاستاذ سهيل أيوب
٢٨٠٠	الحرب والسلم ١ ـ ٤	ليو تولستوي	لجنة الترجمة
١٠٠٠	سقوط باريس	ايليا اهرنبورغ	لجنة الترجمة
١٥٠٠	العاصفة ١ ـ ٢	ايليا اهرنبورغ	لجنة الترجمة

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٤٠٠	الاعماق	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل ايوب
٥٠٠	ذكريات في بيت الموتى	دستويفسكي	الاستاذ جرجيس فتح الله
٤٠٠	أين الله	مكسيم جوركي	الاستاذ نظير زيتون
٤٠٠	الفتاة والموت	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل ايوب
٤٠٠	حياتي	ايزادورا دنكان	لجنة الترجمة
٤٠٠	حب وطلسم او الجلد المسحور	اونوريه ده بلزاك	الاستاذ فريد انطونيوس
٤٥٠	قصة زويا وشورا	ل ٠كوسمودميانسكايا	الاستاذ سهيل ايوب
٣٥٠	مراعي السماء	جون شتاينبك	الدكتور فؤاد ايوب
١٢٠٠	حياتي ١ ـ ٢	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل ايوب
٧٥٠	مذلون مهانون	فيدور دستويفسكي	الاستاذ سامي الدوربي
٣٥٠	الزوج الابدي	فيدور دستويفسكي	الاستاذ سامي الدوربي
٥٠٠	الصبي الاسود	ريتشارد رايت	الاستاذ سهيل ايوب
٣٥٠	دون جوان	بوشكين	الاستاذ سهيل ايوب
١٠٠	المراهق	مارجوري كنان رولنجز	سليم سلامه
٢٥٠	بحث في الحرية	جون ستووورت مل	الدكتور نعيم الرفاعي
١٠٠	صباح الخير يا آنسة دوف	فرانسيس ج٠باتون	عزة عصام طه
٣٠٠	كارولين وجوهرة	ماري أوهارا	سليم سلامة
٣٥٠	الحرب الذرية المقبلة	الكولونيل ف ٠ ١٠	هيثم كيلاني
٢٠٠	الصواريخ والقذائف والاقمار	ميكشه شارلز كومبز	
١٥٠	شعراء وشهداء من بلغاريا		احمد سليمان الاحمد
٣٥٠	أصل العائلة	فردريك انجلز	فؤاد ايوب
٣٥٠	بؤس الفلسفة	كارل ماركس	اندريه يازجي

اسرة التأليف والترجمة العسكرية

الفئة والحضيرة

للمقدم و الرئيس

توفيق شاتيلا جادو عزالدين

●

الرشاش برونينغ عيار ٧،٦٢

للرئيس و الملازم

مصطفى شاكر اسعد طباخ

●

١ ـ بطاقة مذكرات

٢ ـ نظام الكلية العسكرية

٣ ـ نظام مدارس الرتباء

●

قتـــال المشاة

للعقيد محمد صفا

●

السيارات الميكانيك والسواقة

للمقدم فائز موسى القدسي

●

قتـــال المدرعات

للمقدم حسني جروس

●

قتال المشاة بالتعاون

للمقدم امين النفوري

●

المسدسات الرشاشة

برته طويلة وبرته قصيرة ستين

للرئيس برهان قصاب حسن

السرية في النظام المنضم

للرئيس و الملازم

جادو عز الدين نايف عطواني

●

المشاة المنقولة

للرئيس و الملازم

مصطفى شاكر صبحي الشربتجي

●

اشارات مورس العالمية

المقدم و الملازم

طارق الكيلاني حيدر شريف

●

الجندي والحضيرة

للعقيد محمد صفا

●

السيارات ـ الاصلاح والعناية

للمقدم فائز موسى القدسي

●

المدرعات

للمقدم اسعد اسماعيل

●

الطبغرافيـــة

للرئيس جميل حجار

●

المسدس الرشاش

نموذج ٤٥

للرئيس برهان قصاب حسن

المدفع الالماني عيار ٥٠ باك ٣٨

للملازم اسعد طباخ

●

شرطة الجيش

للملازم عيسى عجي

●

المسدس برونينغ عيار ٩ مم

للملازم اسعد طباخ

●

الطبغرافية

للدكتور محمد علي صبري

مدفع الهجوم عيار ٧٥ مم

للملازم اسعد طباخ

●

دليل الغيوم للطيارين

للملازم رمزي سعدالدين

●

الدستور السوري

●

الالغام

للملازم ابراهيم الشاعر

●

مجموعة كراسة عسكرية

وزارة الدفاع

البارودة ٣٦ صندوق الرمل

الهاون ٨١ مم الرشيش ٢٤ ـ ٢٩

قتال وحدات المشاة الهاون ٦٠ مم

مجموعة كراسة تدريب

مدارس الرتباء

(١) قتال الحرب (٣) فن الرمي

(٢) القتال القريب (٤) المخابرات

●

مجموعة كراسة فنية

للمقدم توفيق شاتيلا

في التدريب العسكري

في السلوك ازاء الطيران

في الجرائم ضد الوطن

في أوامر المراسلات

في بعض الحالات التعبوية

في صنوف الاسلحة

T

Back

S

*PB-32749-A
5-10T
CC
5787.

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02824 6059
DS223 .A78
al-Ummah al-Arabiyah : mahiyat

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر
بدمشق

تقدم الفيلسوف العربي

زكي الأرسوزي

في سلسلة

بعث الامة العربية

و

رسالتها الى العالم

	قرش
الرسالة الاولى : المدنية والثقافية	١٠٠
الرسالة الثانية : اللغة والفن	١٠٠
الرسالة الثالثة : الفلسفة والاخلاق	١٠٠
الرسالة الرابعة : الدولة والامة	١٠٠

كتاب العبقرية العربية في لسانها ٣٥٠
كتاب مشاكلنا القومية وقوف الاحزاب ٣٠٠
كتاب الامةالعربية ماهيتهارسالتهامشاكلها ٢٠٠

.A78T

ثمن النسخة ٢٠٠ قرش سوري أو ما يعادلها